

دِیَرِ سَنَاتِ تَا رِجِیَّتِ (3)
مُحَوِّثِ تَا رِجِیَّةٍ وَ رِجَالِیَّةٍ



دار المعارف الإسلامية الثقافية

الكتاب: دراسات تاريخية (3) بحوث تاريخية ورجالية

تأليف: الشيخ مصطفى قصير رحمته الله

مراجعة وتنسيق: مركز المعارف للمناهج والمتون التعليمية

إصدار: دار المعارف الإسلامية الثقافية

الطبعة: الأولى - 2019م / 1440هـ

DB  UH
0096 13 3362 18

تصميم وطباعة:

ISBN 978-614-467-???-?

books@almaaref.org.lb

00961 01 467 547

00961 76 960 347

دِيَارُ السَّيِّدَاتِ تَارِيخِيَّةٌ (3) بِحَوْثِ تَارِيخِيَّةٍ وَرِجَالِيَّةٍ

الجزء الخامس عشر



دار الحقائق الإسلامية الثقافية



الفهرس

الفصل الأول: اليهود في التاريخ.....9

- 11..... من هم اليهود؟!.....
- 12..... أبناء يعقوب والتآمر على يوسف
- 13..... بنو إسرائيل وفرعون مصر
- 14..... عبادة العجل
- 15..... استمرار العناد والمكابرة
- 16..... أوصاف اليهود في القرآن.....
- 18..... مواقف اليهود من رسول الله ﷺ
- 21..... اليهود والتوراة.....
- 24..... سبب عدا اليهود للإسلام.....
- 25..... الإسلام والأديان السماوية
- 27..... اليهود والصهيونية
- 30..... إسرائيل من الداخل
- 32..... أرض الميعاد.....
- 36..... الجرائم الصهيونية في فلسطين ولبنان.....
- 38..... ما هو السلام الصهيوني؟.....

الفصل الثاني: بيت المقدس العمق الديني عند المسلمين41

- 44..... من أين يكتسب الزمان أو المكان قدسيته؟.....

46..... «بيت المقدس»

47..... أولى الناس بيت المقدس

الفصل الثالث : الجدال المثار حول شخصية المختار الثقفي.....51

53..... تهديد

54..... نظرة تاريخية حول المختار الثقفي وثورته

58..... الجدال المثار حول ثورة المختار الثقفي

الفصل الرابع: الخواجة نصير الدين الطوسي قدس سره بين العلم والسياسة65

67..... ولادته ووفاته

67..... مكانته العلمية

69..... مؤلفاته

71..... فكره ومنهجه

72..... في قلاع الإسماعيليين

الفصل الخامس: السيّد محمّد صاحب المدارك.....79

81..... تهديد

81..... نسبه وعائلته

83..... ولادته ووفاته

83..... أساتذته وتحصيلاته العلمية

86..... مقامه وموقعيته العلمية

87..... أبرز تلامذته ومن تربي في مدرسته

89..... خصوصياته الفردية والاجتماعية

91..... عائلته وأولاده

91..... مؤلفاته

الفصل السادس: بهاء الدين العاملي: أعجوبة الزمان93

95..... تهديد

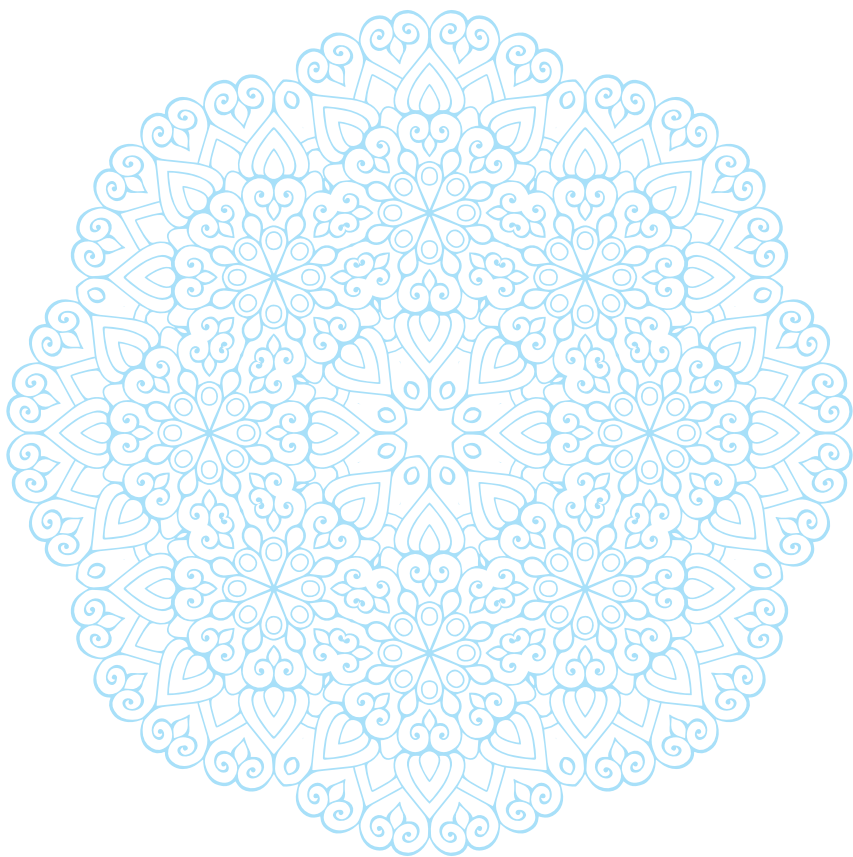
96..... نسبه

96..... ولادته

عائلته.....	97
تحصيلاته العلميّة.....	98
أساتذته ومرّبوه.....	98
مقامه العلميّ.....	99
أقوال العلماء في حقّه.....	100
تلامذته ومن تربّى في مدرسته.....	100
خصوصيّاته الأخلاقيّة والفرديّة والاجتماعيّة.....	101
عائلته وأولاده.....	103
عصره السياسيّ.....	103
رحلاته.....	105
مؤلّفاتّه.....	105
من أشهر مؤلّفاتّه.....	106
أدبه وشعره.....	107
نماذج من شعره.....	108
وفاته.....	110

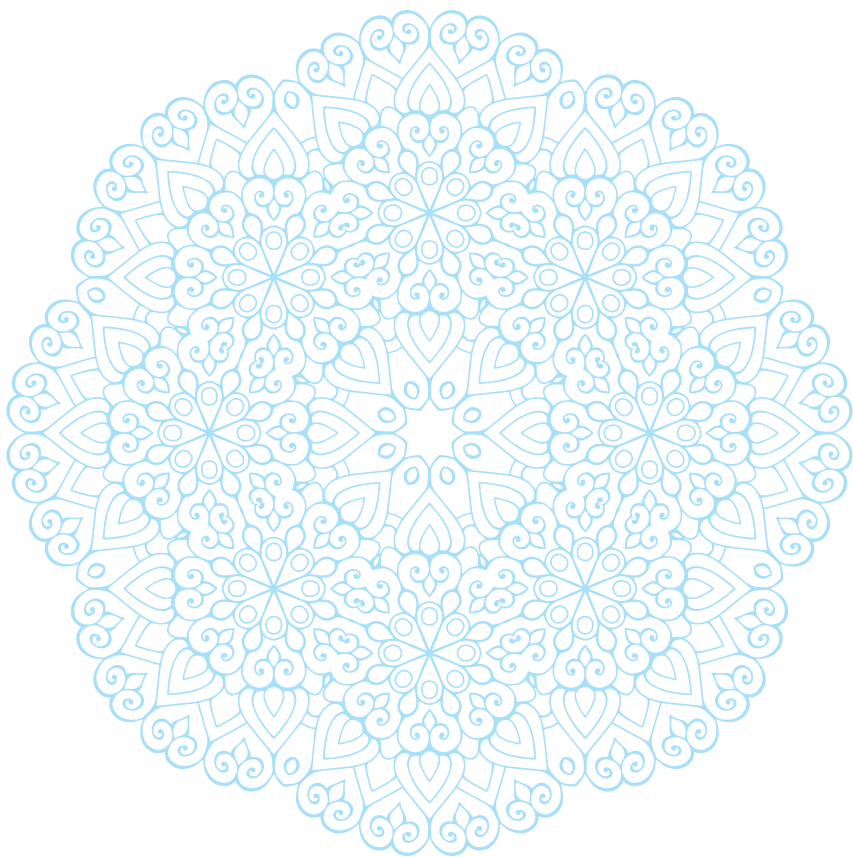
الفصل السابع: الإمام الخمينيّ قُدس سرّه قُدوة الثائرين..... 111

منطق الثورة والثقافة الثوريّة في الجمهوريّة الإسلاميّة.....	113
من الثورة إلى الدولة.....	114
منطق الثورة ومنطق الدولة.....	115
أين الخلل في هذا التفكير؟.....	117
الإمام الخمينيّ قُدس سرّه بين مبادئ الثورة ومشروع الدولة.....	117
الامتحانات الصعبة.....	119
قائمة المصادر والمراجع.....	121



الفصل الأول

اليهود في التاريخ



من هم اليهود؟!

«اليهود» شعب يدّعي أنّه يدين بدين موسى ﷺ، ولكنّ المبادئ التي يلتزمون بها تتنافى مع الأديان الإلهيّة، ولا يمكن أن تكون هي مبادئ النبي موسى ﷺ، فاليهود يعتقدون أنّهم «شعب الله المختار»، وأنّهم «أبناء الله وأحبّاءه»، وأنّ باقي الأمم قد خلّقوا لخدمتهم، وأنّهم عبيد عندهم. «لأنّك أنتَ شعب مقدّس للربّ إلهك، إيّاك قد اختار الربّ إلهك لتكون شعباً أخصّاً من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض»⁽¹⁾.

وانطلاقاً من هذا المبدأ العنصريّ والأنانيّ والاستكباريّ، يبنون سياساتهم، ومنه ينطلقون في تعاملهم مع الآخرين. ولم تجنِ عليهم هذه النظرة العنصريّة سوى الويلات والمصائب واحتقار الآخرين لهم، فتاريخهم يثبت أنّهم لم يتمكّنوا من معايشة بقيّة الشعوب، ولم يتمكّنوا من اكتساب ثقة الناس بهم؛ لأنّهم لا يتورّعون عن المكر والاحتيال والخديعة والتآمر والخيانة.

(1) الكنيسة، الكتاب المقدّس (العهد القديم)، دار الكتاب المقدّس، 1980، لا.ط، ص290.

ولسنا بحاجة إلى سبر أغوار الكتب التاريخية التي مُلئت بشنيع أفعالهم، فإنّ القرآن الكريم يحكي لنا ما فيه الكفاية، ونستعرض في المقام بعض تلك القصص.

أبناء يعقوب والتآمر على يوسف

يُطلق اليهود على دولتهم المزعومة اسم «إسرائيل»، وهو اسم نبيّ الله يعقوب عليه السلام. وبنو إسرائيل هم أبناؤه الذين تآمر عشرة منهم على أخيم من أبيهم «يوسف عليه السلام»، حيث دفعهم الحسد والكراهية له إلى إلقائه في الجبّ، والاحتيال على أبيهم النبيّ، واتّهامهم إيّاه بالضلّال، ولم يؤثّر فيهم ما رأوا من حزن أبيهم ومعاناته، ولم يثر فيهم ذلك الشفقة عليه، وكان همّهم التخلّص منه بهذه الطريقة القاسية. وقد حكى الله لنا قصّة يوسف ومعاناته الطويلة بسبب إخوته في سورة «يوسف»⁽¹⁾.

أبناء إسرائيل هؤلاء هم أجداد بني إسرائيل الذين جاء موسى عليه السلام ليخلّصهم من فرعون، ولينقذهم من ظلمه وطغيانه، إلّا أنّهم لم يشكروا الله على هذه النعمة والمِنَّة، بل طغَوْا، وتجاوزوا حدودهم، وزعموا أنّهم شعب الله المختار.

(1) راجع: سورة يوسف.

بنو إسرائيل وفرعون مصر

ورد في قصّة يوسف أنّ يعقوب عليه السلام هاجر بأولاده من فلسطين إلى مصر ليقيموا في ظلّ يوسف. وقد أشار القرآن إلى ذلك، حيث قال تعالى: ﴿وَقَالَ أَدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾⁽¹⁾، ﴿وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾⁽²⁾.

ويحكي لنا التاريخ أنّ الملك الذي كان آنذاك على مُلك مصر قد أقطعهم -إكراماً ليوسف- أرضاً خصبة في مصر. وظلّت سلالة يعقوب عليه السلام هناك أمداً غير قصير، حتّى آل الملك إلى فرعون الذي يحكي لنا القرآن اضطهاده لبني إسرائيل، فيقول: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَدَّيْحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾⁽³⁾.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَجِّجُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾⁽⁴⁾.

وقد اختلف المفسّرون في سبب اضطهاد فرعون لهم، قال الشيخ المراغيّ في تفسيره: «إنّ فرعون إنّما اضطهد بني إسرائيل؛ لأنّه كان يتوجّس خيفةً من الذكران الذين يتمرّسون الصناعات، وبأيديهم زمام المال، فإذا طال بهم الأمر استولوا على المرافق العامّة، وغلبوا عليها المصريّين، والغلب الاقتصاديّ أشدّ وقعاً من الغلب الاستعماريّ»⁽⁵⁾.

(1) سورة يوسف، الآية 99.

(2) البسورة نفسها، الآية 100.

(3) سورة القصص، الآية 4.

(4) سورة إبراهيم، الآية 6.

(5) نقله عنه: مغنية، الشيخ محمّد جواد، التفسير الكاشف، دار العلم للملايين، بيروت، 1981م، ط3، ج6، ص48.

وقال آخرون: إِنَّ سبب الاضطهاد ما عرفه فرعون عن طريق المنجمين أَنَّ نبيًّا سَيُبْعَثُ فيهم يُزِيلُ مُلْكَهُ، وقيل غير ذلك.

ومهما يكن، فإنَّهم كانوا في عهد فرعون في غاية الضعف والمذلة، وكان خصمهم في غاية القوة والعتوّ والاستكبار، فعكس الله سبحانه وتعالى - الأمر على يد موسى عليه السلام، فأذاق عدوهم فرعون الهوان والمذلة، وأورثهم ملك آل فرعون وأموالهم، فما شكروا الله على نعمته، وما حفظوا مَنِّته، بل عتّوا وأفسدوا وكفروا، وقتلوا الأنبياء والصالحين، وعبدوا العجل بكفرهم.

عبادة العجل

بعد أن بعث الله موسى عليه السلام بالبينات، وخلص بني إسرائيل من ظلم فرعون، وأنقذهم من الذل والهوان، لم يجد منهم إلَّا الكفر والعصيان. وقد حكى لنا القرآن الكريم مواقف عدّة لهم تثبت هذا الأمر، منها قوله - تعالى -: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾⁽¹⁾.

لكنَّهم لم يقتنعوا بذلك، ولم يقفوا عند هذا الحدّ، بل عبدوا العجل بعد ذلك يوم استغلَّ السامريّ غياب موسى عليه السلام في مواعده مع ربّه، يقول - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقُومُوا لِلَّهِ فَنُؤْمِنُ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبَعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ۖ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾⁽²⁾.

(1) سورة الأعراف، الآية 138.

(2) سورة طه، الآيتان 90-91.

وقد قال لهم موسى عليه السلام بعد عودته: ﴿يَقَوْمُ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ﴾⁽¹⁾.

استمرار العناد والمكابرة

ذكر القرآن الكريم موارد عدّة من عنادهم ومكابرتهم وأسئلتهم التعجيزيّة، منها:

- 1- ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّلِيقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾⁽²⁾.
- 2- ﴿وَإِذْ قُلْنَا أَدْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرَ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾⁽³⁾.
- 3- ومنها ما ورد في قصّة السبت: ﴿وَسَأَلُهُمُ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾⁽⁴⁾.

(1) سورة البقرة، الآية 54.

(2) السورة نفسها، الآية 55.

(3) السورة نفسها، الأيتان 58 - 59.

(4) سورة الأعراف، الآية 163.

وكان الله - سبحانه وتعالى - قد نهاهم عن الصيد يوم السبت، فخالفوا وعاقبهم الله - تعالى - على ذلك، حيث يقول: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾⁽¹⁾.

أوصاف اليهود في القرآن

1- قساة القلب:

ويدل على ذلك قوله - تعالى -: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾⁽²⁾.

2- قتلة الأنبياء:

أ. يقول - تعالى -: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمِ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَنُومُونَ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَيكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ لِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾⁽³⁾.
 ب. ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾⁽⁴⁾.

3- تحريف كلام الله:

أ. ويدل على ذلك قوله - تعالى -: ﴿أَفَتَضْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾⁽⁵⁾.

(1) سورة الأعراف، الآية 166.

(2) سورة البقرة، الآية 74.

(3) البقرة نفسها، الآية 91.

(4) البقرة نفسها، الآية 61.

(5) البقرة نفسها، الآية 75.

ب. ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾⁽¹⁾.

ج. ﴿فَبِمَا نَقُضِهِمْ مِيثَقَهُمْ لَعَنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾⁽²⁾.

4- التمرّد وكفران النعم:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِئُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصَلَهَا قَالَ أَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بَعِيرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾⁽³⁾.

5- نقض المواثيق والعقود:

أ. ﴿فَبِمَا نَقُضِهِمْ مِيثَقَهُمْ لَعَنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾⁽⁴⁾.

ب. ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسْرَى تَقْدُوهُمْ وَهُوَ مُحْرَمٌ

(1) سورة النساء، الآية 46.

(2) سورة المائدة، الآية 13.

(3) سورة البقرة، الآية 61.

(4) سورة المائدة، الآية 13.

عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفْتُوْمُنُونَ بِيَعُضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضِ
فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ
الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ⁽¹⁾.

6- عدم إيمانهم بالبعث والنشور:

﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾⁽²⁾.

مواقف اليهود من رسول الله ﷺ⁽³⁾

نتيجةً لروح التآمر والخيانة التي سار عليها اليهود عبر التاريخ، فقد تعرّضوا للتشريد، ونزحوا عن ديارهم مرّات عدّة، وتفرّقوا في البلاد، فقطنت بعض القبائل منهم مدينة يثرب وضواحيها، وأهمّ تلك القبائل بنو قينقاع وبنو قريظة وبنو النضير، وذلك بالقرب من يثرب، حيث كان يعيش يهود خيبر وتيماء وفدك.

وكانت القبائل الثلاثة التي استوطنت يثرب من أكبر قبائل اليهود، وعلى الرغم من أنّهم أبناء دين واحد، إلّا أنّهم كانوا في نزاع وقتال مستمرّين بهدف التسلّط على يثرب والتفرّد بالسيطرة عليها. ولم يكن عرب يثرب من الأوس والخزرج أحسن حالاً من اليهود، فهم بدورهم كانوا في تناحر مستمرّ، وكثيراً ما كانت تتداخل حروب هؤلاء مع حروب أولئك.

(1) سورة البقرة، الآيتان 84-85.

(2) السورة نفسها، الآية 66.

(3) راجع: ياسين، الشيخ كاظم، تاريخ خاتم الأنبياء، دار المحجّة البيضاء، لبنان - بيروت، 1434هـ/2013م، ط1، ج1، ص2.

وقد تحدّث القرآن الكريم عن روح العداء التي كانت تسري بين اليهود أنفسهم، في قوله -تعالى-: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾⁽¹⁾.

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنفُسَكُمُ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّن دِيرِهِمْ تَبْطِغُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمُ أُسْرَىٰ تَفْدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾⁽²⁾.

وكانوا يزرعون الفتنة، ويشعلون نارها بين القبائل العربيّة، لإضعافها والسيطرة على مقدّرات المدينة نتيجة لذلك.

وعندما اقترب زمان بعثة الرسول ﷺ، تحدّث اليهود وغيرهم عن الحدّث المرتقب، وتحمّس له اليهود مهذّدين جيرانهم العرب بأنّ النبيّ الجديد سيقود اليهود إلى النصر المبين، ويبني لهم الملّك العظيم، وسيتغلّبون عليهم.

ولمّا بُعث الرسول ﷺ في مكّة المكرّمة من بيت هاشميّ قرشيّ عربيّ، صُنع اليهود، فقد كانوا يتوقّعونه يهوديّاً منهم⁽³⁾. وعندما هاجر الرسول ﷺ إلى يثرب لم يجدوا بدّاً -في أوّل الأمر- من مهادنته وإظهار الموقف السلميّ تجاه رسالته.

(1) سورة الحشر، الآية 14.

(2) سورة البقرة، الآية 85.

(3) ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، سورة البقرة، الآية 89.

وقد تعامل الرسول ﷺ مع هذا الموقف بإيجابية، فعقد مع قبائل اليهود هناك معاهدة كانت أول ميثاق دستوريّ نظّم فيه العلاقة مع قبائل اليهود في المدينة.

ولم تطل الأيام حتّى بدأ اليهود بشنّ حرب إعلاميّة ضدّ الدين الإسلاميّ، في محاولة لزعزعة أركانه وإثارة الشبهات حوله؛ بغية تشويه صورته وإبعاد الناس عنه، وأكثروا من طرح التساؤلات التعجيزيّة على رسول الله ﷺ.

وبعد فترة قصيرة، بدأت تظهر كوامن نفوسهم وآثار ما يخفون في داخلهم من أحقاد تجاه الإسلام والمسلمين، وتجاه الرسول الأمين ﷺ، فقد خرج رسول الله ﷺ بالمسلمين إلى معركة بدر لمواجهة المشركين القادمين من مكّة المكرّمة لمحاربته، فاستغلّ اليهود هذه الفرصة التي كانوا يتمنّون أن ينتصر فيها المشركون، فأخذوا يبتّون الأراجيف في المدينة، فأشاعوا أنّ الرسول ﷺ قد قُتل، وأنّ المسلمين هُزموا، وأنّ أمر الإسلام قد انتهى، لكن سرعان ما أظهر الله -سبحانه- زيف مزاعمهم، وكشف عن خبث سرائرهم، فعاد الرسول ﷺ عزيزاً منصوراً.

وأخذ المشركون في مكّة يُحرّضون اليهود على نقض عهدهم مع رسول الله ﷺ. وبالفعل، فقد استجاب لهذا التحريض بعض قبائل اليهود، فنقضت بنو قينقاع عهدها وخانت موثيقها، وأقدمت على جريمة نكراء في حقّ امرأة مسلمة، أثار الاعتداء عليها مشاعر المسلمين، فقتلوا الفاعل، وشدّ اليهود على المسلمين فقتلوا القاتل، وعدّ الرسول ﷺ جريمتهم هذه نقضاً صريحاً لبنود

العهد الذي كتبه لهم، فحاصرهم حتى طلبوا الجلاء عن المدينة، فوافقهم على ذلك.

ولم يطل العهد ببني النضير وبني قريظة حتى نقضوا عهودهم أيضاً، وتمالأوا مع مشركي قريش على محاربة الرسول ﷺ في حالات الشدة التي عاشتها المدينة، ولم يكن مصيرهم أفضل من إخوانهم الذين سبقوهم بالغدر والخيانة.

وقد استمرَّ غدر اليهود بالمسلمين كلّما أُتيحت لهم الفرصة. وعندما عجزوا عن النيل من عزّة الإسلام وقوّته، انصرفوا لبثّ سمومهم، وتآمروا للقضاء على الإسلام من الداخل، فعمل عددٌ من اليهود على إظهار الإسلام وإبطان الكفر والنفاق؛ بغية الفتنة والفساد، فكان منهم عبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، وأمثالهما.

اليهود والتوراة

«التوراة» كتاب أنزله الله على موسى ﷺ، إلا أنّ هذا الكتاب فُقدَ تماماً، وما هو موجود عند اليهود لا يمتّ إلى التوراة النازلة على موسى ﷺ بصلّة أبداً، فقد تحدّاهم القرآن الكريم بأن يأتيوا بالتوراة، وأن يظهروها في مواضع عدّة:

1- ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾⁽¹⁾.

(1) سورة آل عمران، الآية 93.

2- ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْسَتْ رُءُوسُهُ بِهٖ ثُمَّ قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾⁽¹⁾.

3- ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾⁽²⁾.

ويظهر من خلال هذه الآية وغيرها من الآيات، أن أحبار اليهود كانوا يكتُمون ما أنزل الله على موسى، ولا يُظهرون إلا ما يناسب أهواءهم، وخاصة في المرحلة التي ظهر فيها الإسلام، فقد كانوا يتعمدون إخفاء الشواهد التي تدلّ على صدق الرسول محمد ﷺ في التوراة التي بأيديهم.

وقد كتب المؤرخون ما يُستفاد منه أنّ التوراة الموجودة بأيدي اليهود اليوم، والمكوّنة من الأسفار الخمسة (سفر التكوين، وسفر الخروج، وسفر الأولين، وسفر العدد، وأخيراً سفر التثنية)، هذه التوراة لم يكتبها موسى عليه السلام، وهي عمل الأحبار، ولم يذكروا اسمهم عليها، وقد ألغوها على التعاقب، معتمدين في تأليفها على روايات سماعيّة سمعوها قبل أسر بابل (586 ق.م). ويرى بعض المؤرخين أنّ هجرة مصر ما هي إلا قصّة وهميّة أو حادثة رمزيّة، وليس لها أصل حقيقيّ.

(1) سورة البقرة، الآية 79.

(2) سورة الأنعام، الآية 91.

وثمة أدلة كثيرة جداً تكشف عن تحريف التوراة وعدم إمكان نسبتها إلى موسى عليه السلام، ولا يسعنا هنا استعراضها بالتفصيل، ونكتفي بذكر بعض الأدلة فقط:

1- تتحدث التوراة عن موت موسى عليه السلام ودفنه، وهذا يدل على أنها كُتبت بعد موته.

2- تعرّض التوراة لأحداث متأخرة عن موسى عليه السلام، وهي تدل على أنها كُتبت بعد عصر الملوك؛ أي بعد استيلاء بني إسرائيل على أرض كنعان كلّها، واتخاذهم أورشليم عاصمة للمملكة؛ لأن أخبار الملوك قد ذُكرت في التوراة.

3- التوراة الموجودة والمتداولة تنسب إلى أنبياء الله المطهّرين أعمالاً لا يمكن بشكل من الأشكال أن تصحّ نسبتها إليهم. فهي مثلاً تتهم النبي داود عليه السلام بالزنا بزوجة أحد قوّاده، وتتهم نبيّ الله لوطاً عليه السلام بالزنا بابنتيه وإيلادهما ولدَيْن. ولا يمكن لعالم أن يقبل ذلك، فأيّ ميزة -لو صحّ ذلك جدلاً- للنبي على غيره من البشر ليختصّه الله -سبحانه وتعالى- بالنبوة، وبعثه بالرسالة، ويحمّله الأمانة العظمى، والحال أنّه يفعل هذه الموبقات. وهذا من أوضح أنواع الافتراء والكذب على الأنبياء عليهم السلام. وقد دُسّت هذه المفتريات في التوراة لأغراض خبيثة.

4- يقول اليهود السامريّون في تواريخهم إنّ عزرا هو الذي حرّف توراة موسى عليه السلام، وقد أيّد علماء اللغات كلام السامريّين هذا، فقال بعضهم: «إنّ الخطّ العبريّ المستعمل عند اليهود في عصرنا الحاضر كان ابتداء استعماله من عصر عزرا الكاتب؛

أي من عهد رجوع بني بابل، ويطلقون على هذا الخط اسم الآشوريّ أو الخطّ المربع. أمّا الخطّ العبريّ القديم، فإنّه كان على خلاف هذا»⁽¹⁾.

5- الأهمّ من ذلك كلّهُ، ما ورد في رواياتنا بشكل مستفيض ومتواتر من أنّ اليهود قد حرّفوا التوراة النازلة على موسى ﷺ. ولا غرابة في ذلك، فإنّ الذين قتلوا الأنبياء والصلحاء لن يتورّعوا عن تحريف الكتب النازلة عليهم والمبادئ الدينيّة لشرائعهم.

سبب عداة اليهود للإسلام

أعلن اليهود -كما تقدّم- عداةهم للإسلام منذ اليوم الأوّل لظهوره، وما زالوا يحقدون عليه أشدّ الحقد، على الرغم من أنّهم كانوا أوّل من بشرّ بظهور النبيّ الأعظم محمد ﷺ، استناداً إلى الدلائل القاطعة التي وجدوها في كتبهم، وتوجد أسباب عديدة تقف وراء هذا الحقد والعداء، منها:

1- إنّهم وجدوا الإسلام نظاماً كاملاً شاملاً، يُحرّم الربا والاحتكار واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان، فلم يتناسب ذلك مع أطماعهم ومصالحهم، فقد كانوا منذ القِدَم يُركّزون على الاستغلال والاحتكار والربا، وكانوا ولا يزالون في جميع العصور والأمصار أبرز المُرابين والمحتكرين.

(1) أنور، أحمد فؤاد، الكنز الثمين في قواعد اللغة العبريّة، لان، لام، لات، لاط، ص58.

2- الحسنَ العنصريّ الذي تأصّل فيهم، فهم يرون أنفسهم «شعب الله المختار»، كما تنصّ توراتهم المُحرّفة، وينظرون إلى باقي الأمم على أنّهم لا حرمة لهم، وأنّهم خلّقوا لخدمتهم، والإسلام يرفض ذلك، ويعدّ ميزان التفاضل بالتقوى، وإنّه لا يوجد شعب من الشعوب له ميزة عنصريّة على غيره.

مضافاً إلى أنّ الإسلام قد جاء ليضع قواعد جديدة في بناء المجتمع على أساس التآخي والتساوي، وليُعزّز بالإسلام قوماً كانوا أذلاء، ويذلّ أقواماً بكفرهم وعدائهم للدين والإسلام.

3- كان اليهود يزعمون أنّهم متفوّقون علمياً على غيرهم، فجاء الإسلام ليبطل مزاعمهم وكذبهم في موارد كثيرة.

لهذه الأسباب وغيرها كان اليهود همّ الأشدّ عداوة للذين آمنوا، وقد ذكرهم الله - سبحانه وتعالى - قبل المشركين وقرّتهم بهم، فقال: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾⁽¹⁾.

الإسلام والأديان السماويّة

نحن نعتقد أنّ الأديان السماويّة كلّها جاءت لتحقيق للإنسان سعادته وتكامله، وجميع الأديان الحقّة التي جاء بها أنبياء الله -تعالى- تنطلق من المبادئ والأسس نفسها، فهي تقوم على أساس التوحيد والإيمان بالمعاد، وتضع للإنسان منهجاً قوياً وحكيمياً، ينظّم حياة الإنسان وسلوكه على الأصعدة كافّة.

(1) سورة المائدة، الآية 82.



ولا يوجد أي تناقض أو تعارض بين الأديان، وإذا وُجد شيء من ذلك، فهو ناشئ من خطأ في النقل أو من قِبَل حَمَلَة الأديان. نعم، يمكن أن تكون الأديان المتأخّرة ناسخة للأحكام العباديّة وبعض الأنظمة الخاصّة بها. وينبغي أن لا يكون ذلك باعثاً على التحسّس والتعصّب من قِبَل أتباع الأديان المنسوخة، فإنّ المشرّع والحاكم هو الله -تعالى-، فإذا أمر بشيء فمقتضى التسليم له أتباع أمره، وإذا نُسخ ذلك الأمر بأمر آخر جديد، فلا يجوز التعصّب للأمر السابق ورفض الأمر الجديد.

إذاً، يمكن القول إنّ الإسلام لا يعارض الأديان الأخرى، ولا يعادي أتباعها، إذا كانوا صادقين بتديّتهم والتزامهم بأمر الله.

فالعداء جاء من قِبَل أتباع الديانات السابقة، ومن اليهود خاصّة، الذين رفضوا الإسلام وكذبوه وحاربوه، وأعلنوا العداوة تجاهه وتجاه أتباعه، كما فعلوا من قبل مع المسيح عيسى عليه السلام وأتباعه. وقد شنّوا حملات إبادة على المسيحيين، وقصّة نصارى نجران الذين أحرقوهم في الأخدود وهم أحياء شاخصة في التاريخ، وورد ذكرها في القرآن الكريم.

العداء -إذاً- جاء من قِبَل اليهود، بسبب عنصريّتهم واستكبارهم وطغيانهم. ولا شكّ في أنّ الإسلام الذي هو دين العدل يرفض الخضوع والاستسلام، ولا يرضى لنا الذلّ والهوان، وقد شرّع لنا الجهاد لنحفظ عزّتنا، ويدلّ بنا أعداء الدين والإنسانيّة.

اليهود والصهيونية

الصهيونية حركة يهودية، تشكلت بعد المؤتمر الصهيوني الأول الذي نظّمه تيودور هرتزل في بازل بسويسرا عام 1897م. وسُميت الحركة بهذا الاسم نسبة إلى جبل صهيون في القدس القديمة. أخذت هذه الحركة على عاتقها التمهيد لقيام دولة يهودية على أرض فلسطين، على غرار الدولة القديمة التي كانت قائمة هناك (-932 586 قبل الميلاد).

وقد تقرر في المؤتمر الصهيوني الأول تشكيل منظمات صهيونية في البلاد التي يقطن فيها عدد ملحوظ من اليهود، بهدف تعبئتهم، وحثهم على الهجرة، والاستفادة من دعمهم المالي لتنفيذ مشروعاتهم الاستيطانية في فلسطين. وبالفعل، فقد تحمّس لهذه الحركة يهود أوروبا الشرقية، وأمدها يهود أميركا بالمال. وقد حاولت الحركة الصهيونية العالمية بادئ الأمر إقناع السلطان عبد الحميد الثاني بأن يمنح اليهود وطناً قومياً في فلسطين ليقيموا عليه دولتهم، إلا أنه امتنع عن ذلك. ثم اتّجه الصهاينة نحو بريطانيا التي كانت قد بدأت استعمارها في المنطقة، واستطاعوا الحصول من حكومتها على وعد بلفور المشؤوم في (2 نوفمبر 1917).

ومنذ ذلك الوقت أغرق الصهاينة البلاد بسيل من المهاجرين اليهود، وعمدوا إلى إقامة المستوطنات، وإنشاء المنظمات الإرهابية التي عملت على إرهاب المسلمين وطردهم من ديارهم بالقوة.

فالحركة الصهيونية هي حركة سياسية أُقيمت بهدف التأسيس لوطن قومي لليهود، إلا أنّها في بادئ أمرها قوبلت بالرفض من

الجانب الأعظم من اليهود الأرثوذكس؛ أي المحافظين، ولم يكن لهذا الرفض منشأ إنسانيّ على الإطلاق، لكنهم كانوا يرون أنّ الفكرة الصهيونيّة لإقامة دولة انتظار المخلّص تتناقض مع تعاليم التلمود الذي يقضي بأنّ الرب ذاته -والعياذ بالله- هو الذي سيجمع اليهود.

وقد بلغ الأمر ببعض حاخامات اليهود آنذاك، أن حرموا القادة الصهاينة من حقوق عضويّة المعابد، ودعوا اليهود المتديّنين إلى مقاطعتهم التامّة؛ باعتبار أنّ أفكارهم غير اليهوديّة تُلحق الضرر بعقيدتهم المقدّسة وتهدم أُسسها، وباعتبار أنّ التوراة تحرّم الصهيونيّة.

ولا يزال السيفار (اليهود الأسبان) يرون أنّ دولة إسرائيل ليست هي الأرض المقدّسة حقّاً.

وقد كانت منظمّة (أجودات إسرائيل) الدينيّة المتطرّفة تتخذ مثل هذا الموقف عند تأسيس دولة إسرائيل عام 1947، ولكنّ كثيراً من الحاخامات تحالفوا مع الصهيونيّة بالتدريج، حيث اعتبروها في البداية دعوة دينيّة، بل كانت تعبّر عن وحدة الدين اليهوديّ.

ويقول اليهوديّ «جي تويرغر» في مقالة له عن الفرق بين اليهوديّة والصهيونيّة: «اليهوديّة والصهيونيّة ليستا بأيّ حال متطابقتين، بل إنّهما في الحقيقة غير قابلتَيْن للتوافق ولا الانسجام، فاليهوديّ الصالح لا يمكن أن يكون صهيونيّاً، والصهيونيّ لا يمكن أن يكون يهوديّاً صالحاً».

وهذا اليهودي له فهمه الخاص لمقولة «شعب الله المختار»، فيقول: «الشعب مختار بمعنى أنّ الله اختاره ليعطيه، ولكنّه لم يختره للسيطرة على الشعوب الأخرى، أو للغزو، أو للحرب، بل لخدمة الله، وبالتالي البشرية...».

ويقول حول الصهيونية: «لا أحد من مؤسسي الصهيونية السياسية أو رؤساء وزارات الدولة الصهيونية كان يؤمن بقداسة التوراة أو حتّى بوجود الله، فرؤساء الوزارات السابقين كلّهم ينتمون إلى حزب معارض للدين من حيث المبدأ، ويعتبر التوراة مجرد وثيقة من وثائق التراث الشعبي القديم الخالية من أيّ معنى ديني، ومع ذلك فإنّ هؤلاء الصهيونيين أنفسهم يطالبون بالأراضي المقدّسة على أساس هذه التوراة، ويتناسون أنّنا -كما ورد في التوراة- نُفينا من أرضنا بسبب ما ارتكبناه من خطايا، ويغفلون أنّ النفي الحاليّ للشعب اليهودي هو أمر إلهي مقدّس، وأنّ الشعب اليهودي محظور عليه -وفق التعاليم الدينية- أن يفتح الأراضي المقدّسة أو يحكمها قبل مجيء المسيح المنتظر».

والخلاصة، إنّ الصهيونية حركة عنصرية تتخذ من اليهودية غطاءً لها، وهي تعمل منذ قرن على تهجير المسلمين وتوطين اليهود مكانهم، ولم تتورّع في سبيل هذه الأهداف عن استعمال أنواع الجرائم البشعة كافّة، فقتلت وهجّرت واحتلت، ولا زالت ترتكب المجازر تلو المجازر.

إسرائيل من الداخل

يحدّد القانون الإسرائيلي الصادر في بداية عام 1970 الانتماء إلى القومية اليهودية على أساس السمات العنصرية. وطبقاً للقانون عندهم، لا يُعتبر يهودياً إلا مَنْ وُلِدَ مِنْ أُمٍّ يهودية، واعتنق الديانة اليهودية، وفقاً للمبادئ الدينية الصارمة. وقد أقرّ الكنيست الإسرائيلي هذا القانون، فهو ليس خطوة فردية لأحد.

وأما اليهود المستوطنون الآن في فلسطين المحتلة، طبقاً لبعض الإحصاءات الأمريكية، فقد هاجروا من تسعين بلداً، وهم يتكلّمون سبعين لغة. أمّا عدد اليهود الأصليين الذين كانوا يستوطنون فلسطين قبل الحرب العالمية الأولى، فتقول الإحصاءات إنهم كانوا يشكّلون تُسع (1/9) عدد السكّان الفلسطينيين الذين كان عددهم حتّى الحرب العالمية الأولى لا يزيد على 750 ألف نسمة، وهذا يعني أنّ اليهود آنذاك كانوا (83 ألف نسمة فقط).

وإذا قيسَت هذه النسبة إلى عدد اليهود في العالم الذين قد يصل عددهم إلى 14 مليوناً، فهي نسبة لا تكاد تُذكر.

ويشكّل التنوّع في السكّان اليهود على مستوى اللغات، وعلى مستوى العادات والألوان، أزمة اجتماعية داخل إسرائيل، وهي بمثابة قنبلة موقوتة. فإلى جانب اليهود الشرقيين يوجد يهود أوروبا الشرقية والوسطى، ويهود بلاد البلطيق والبلدان الاسكندنافية، ويهود الجزائر، واليهود السمر القادمون من الحبشة، وأشباه السود القادمون من الهند، والصفر البشرة القادمون من الصين،

وهؤلاء كلّهم متميزون عن بعضهم بخصال شتى؛ في التقاسيم البدنيّة والخصائص النفسيّة والاجتماعيّة.

ثمّ إنّ العداء القديم القائم بين مختلف المجموعات السلاليّة لليهود لا زال موجوداً، فاليهود (السيفارد) الذين ترجع أصولهم إلى اليهود الأسبان والبرتغاليين يعيشون في وضع المنبوذين داخل إسرائيل، واليهود السود تعساء الحظ، يشكّلون أكثر من 70% من أهالي الأحياء الفقيرة والمعدومة، في أقوام لا يعرفون معنى للرأفة ولا للشفقة، وقد وصفهم الله بأنّهم القاسية قلوبهم. وهم يشكّلون 80% من الشباب العاطل عن العمل، و70% من محترفات البغاء.

وهذا يكشف عن مأساة حقيقية على مستوى الوضعين المعيشي والاجتماعي لهؤلاء الذين جاؤوا بهم من الحبشة بوعود فارغة حول جنّة الله على الأرض.

وثمة واقع لا يُنكر، وهو أنّ الذين وقعوا في فخّ الخدعة الصهيونيّة من اليهود كان أغلبهم -إن لم يكن جميعهم- من يهود البلاد الشرقيّة الذين لم يكونوا في حالٍ يُحسدون عليها، والهجرة بالنسبة إليهم لم تكن تضحية بشيء، بينما تقول الإحصاءات إنّ أقلّ المهاجرين عدداً هم من اليهود الأمريكيّين الذين اكتفوا غالباً بتقديم الدعم الماليّ للحركة الصهيونيّة ومشاريعها الاستيطانيّة.

وقد كشف اغتيال الإرهابيّ إسحاق رابين عن عمق الفجوة داخل المجتمع الصهيونيّ، وعن عدم التزامهم بشيء من الشعارات الدينيّة، حتّى تلك التي تنادي بها توراتهم المزعومة من قبيل «قتل اليهوديّ على اليهوديّ حرام».

وقد حكى القرآن الكريم عن اليهود روح الكراهية تجاه بعضهم، فضلاً عن كرههم للآخرين: ﴿بِأْسِهِمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾⁽¹⁾.

وينقل التاريخ العديد من الوقائع والحروب التي وقعت بين اليهود أنفسهم، بل إنّ دولتهم القديمة التي كانت حاكمة في القرن العاشر قبل الميلاد انقسمت إلى دولتين: واحدة في الشمال وأخرى في الجنوب.

نعم، يجتمع الصهاينة على شيء واحد وهو عداؤهم للإسلام والمسلمين، وتجمعهم الروح العنصرية تجاه بقية الشعوب. وقد كانت ولا زالت الحروب التي يشنونها علينا من عوامل توحيدهم وجمع شملهم.

أرض الميعاد

تعتمد الحركة الصهيونية، في إقامة مشروعها، على مقولة مزعومة اسمها «أرض الميعاد»، ومفادها أنّ لليهود حقاً مقدساً في أرض فلسطين؛ نتيجة الوعد الإلهي لهم بدخول هذه الأرض. وقد حاول الصهاينة أن يسوّقوا هذا الوعد المزعوم، ليعطوا الطابع الديني لحركتهم الاستيطانية في فلسطين ومشاريعهم التوسعية على حساب بقية البلاد المجاورة لفلسطين، على قاعدة أنّ أرض الميعاد تمتدّ من الفرات إلى النيل.

(1) سورة الحشر، الآية 14.

وليت شعري! لماذا يخصّ الله - سبحانه - اليهود الصهاينة بهذه الأرض، ولماذا لم يحقق لهم الوعد قبل هذا القرن، وإذا كانوا هم شعب الله المختار، فلماذا تخلى عنهم طيلة القرون السابقة، ولماذا عاشوا مشتتين مفرّقين منبوزين هنا وهناك، وأي وعد هذا الذي يسعون لتحقيقه بالإرهاب والسلاح والمجازر والجرائم! وهل يُصدّق أنّ الله - تعالى - يحبّ اقتلاع الشعوب بهذه الفظاعة، وإبادتها بهذه البشاعة، ليحلّ محلّها شعباً آخر دون أيّ مبرّر ولا جرم اقترفه أولئك، ولا منقبة وحسنة جاء بها هؤلاء!

ثمّ إذا كان الله - سبحانه - قد أذن لنبيّه موسى في أن يسير ببني إسرائيل، ويهاجر بهم من مصر إلى فلسطين يوم كان بنو إسرائيل على دين موسى، وذلك استجابة لدعائه، فإنّ ذلك لا يعني أبداً أنّهم أصبحوا أصحاب حقّ دائم وثابت لهم بأن يعودوا إليها متى شاؤوا، ويمارسوا فيها أبشع الجرائم، ويعملوا بأهلها قتلاً وتشريداً.

ولقد نصّ القرآن الكريم على هذا الإذن، في قوله - تعالى -:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقُومُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَقُومُ أَذْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ (١).

وهذا الوعد الإلهي أو الأمر الإلهي لهم بدخول الأرض المقدسة كان فعلياً في ذلك العصر، وقد عصوا نبيهم ولم يدخلوا، بل قالوا له: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾⁽¹⁾.

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ حركات الأنبياء واحدة ومتصلة، وأنّ أولى الناس بالنبي السابق الذين يؤمنون بالنبي اللاحق؛ لأنّهم إيمان بالرسول المبعوثين من قبل ربّ واحد، فلا يُعقل أن نقبل رسالة نبي ونرفض رسالة آخر، فإنّ الرسل يصدّق بعضهم بعضاً.

﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾⁽²⁾ فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

فلو كان موسى ﷺ حاضراً يوم بُعث محمد ﷺ، لكان أول المصدّقين به والداعين إلى طاعته، فلا معنى للتمسك -الآن- بتنفيذ أمرٍ أمر به موسى ﷺ أتباعه قبل القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وقد جاء بعده من الرسل والأنبياء بأحكام وشرائع وأوامر إلهية جديدة نسخت تلك الأوامر وألغتها، علماً أنّ تلك الأوامر والوعود كانت في زمان معيّن ولقوم معيّنين.

وثمة مفارقة عجيبة، وهي أنّ أسطورة الوعد الإلهي اعتمدت على نصّ توراتي ورد فيه الآتي: «لتحبّوا الربّ إلهكم، وتسلّكوا في

(1) سورة المائدة، الآية 24.

(2) سورة البقرة، الآيتان 136-137.

جميع طرقه، وتلتصقوا به يطرد الربّ جميع هؤلاء الشعوب من أمامكم، فترثون شعباً أكبر وأعظم منكم. كلّ مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم من البريّة ولبنان (لبنان هنا بمعنى الجبل)، من النهر (نهر الفرات) إلى البحر الغربيّ يكون تخمكم لا يقف إنسان في وجهكم. الربّ إلهكم يجعل خشيتكم ورعبكم على الأرض التي تدوسونها كلّها، كما كلّمكم».

ومن جهة أخرى، فإنّ التوراة المتداولة نفسها تصرّح بأنّ الربّ تخلّى عن وعده، ففي سفر القضاة إشارة إلى تخليّ الربّ عن وعده لليهود بإعطائهم أرض كنعان (التي هي أرض فلسطين). حيث ورد فيه: «وفعل بنو إسرائيل الشرّ في عينيّ الربّ، وعبدوا (البعليم)، وتركوا إله آبائهم الذي أخرجهم من مصر، وساروا وراء آلهة أخرى من آلهة الشعوب الذين حولهم، وسجدوا لها، وأغاظوا الربّ، فحمي غضب الربّ عليهم، فدفعهم بأيدي ناهبيهم، وباعهم بيد أعدائهم، ولم يقدرُوا على الوقوف أمام أعدائهم، وقال الربّ من أجل أنّ هذا الشعب قد تعدّوا عهدي الذي أوصيت به آبائهم، ولم يسمّعوا لصوتي، فأنا أيضاً لا أعود أطرد إنساناً من أمامهم من الأمم الذين تركهم يشوع عند موته»⁽¹⁾.

وبناءً عليه، فإنّ أرض الميعاد ليست سوى أسطورة لا واقع لها، يتمسّك بها الصهاينة لإضفاء الطابع الدينيّ على جرائمهم ومشاريعهم التوسّعيّة والاستيطانيّة.

الجرائم الصهيونية في فلسطين ولبنان

لقد كانت انطلاقا الحركة الصهيونية للعمل في فلسطين بتشكيل منظمات إرهابية، عملت منذ اللحظة الأولى على إشاعة جوّ الإرهاب والإجرام في سبيل تحقيق أهداف الوكالة الصهيونية. والتاريخ الإجراميّ لزعماء تلك المنظمات (العصابات)، الذين أصبحوا فيما بعد رؤساء ووزراء الكيان الغاصب، حافل بالدم والقتل والإجرام، وهو غنيّ عن التعريف، ولا ينكر إنسان الصفحات السوداء لهذا التاريخ التي فاقت أنواع الإجرام والتنكيل كلّها بشاعة. فإنّ مذبحه دير ياسين، والنساء الحوامل اللواتي بُقرت بطونهنّ، والشيوخ الذين ذُبّحوا، والأطفال الذين قُطّعوا أكبر شاهد على بشاعة الروح الإجرامية التي يحملها الصهاينة. ومجازر الحولة وقبيّة وكفر قاسم شواهد دامغة لمن يعى عن رؤية الحقائق.

لقد حاول الإسرائيليّون اختراع كذبة، وروّجوا لها في الإعلام بشكل هستيريّ؛ بغية استدراج عطف البشريّة، والظهور بمظهر الضحايا المسكينّة التي لا حول لها ولا قوّة، هذه الكذبة هي أسطورة الأفران النازيّة لقتل اليهود. وعلى الرغم من أنّ القضية لا أصل لها، فقد حوكم «إيخمان» النازي الذي نقّذ الأوامر بإحراق اليهود بزعمائهم. وعندما مثّل «إيخمان» أمام القاضي اليهوديّ وصف نفسه بأنّه صهيونيّ من قمّة رأسه إلى أخمص قدميه، واستنكر أن تحاكمه إسرائيل وهي تمارس على العرب ما تعلّمته من النازيين نفسه! ولقد كان «إيخمان» صادقاً، فقد وجد كثيراً

من أوجه التلاقي بين الصهيونية والنازية، فهما من مدرسة واحدة، فالتعصب العنصري، والإيمان بالتفوق العرقي، ووحدة السلوك الإجرامي المتمثلة بإبادة الشعوب، واغتصاب البلاد، والفتك والتدمير، كلها قواسم مشتركة بين الصهيونية والنازية. ألم يمارس أجداد الصهاينة من اليهود اليمينيين جريمة إحراق الأحياء من نصارى نجران في الخندق المشتعل!

قنابل النابالم التي أسقطتها الطائرات الصهيونية على المدن والقرى الأهلة في حرب 1967 لم تُمحَ من ذاكرة المفجوعين حتى الآن، ومجازر الصهاينة التي ارتكبت في لبنان عام 1978 و1982 لا تزال تحكي بشاعة المجرمين اليهود وحقدهم الأسود، كما أنّ القذائف التي تتساقط يومياً على قرى الجنوب والبقاع الغربي منذ عقدين من الزمن، أثبتت لجيلين متواليين أنّ هذا العدو لا يفهم إلا بمنطق القوة، وأنه لا يرتدع عن غطرسته إلا إذا أذيق الذل والهوان.

وكذلك الأمر في مذبحه صبرا وشاتيلا التي حصدت الآلاف العزل من الشعبين اللبناني والفلسطيني، بمرأى ومسمع من القوات المتعددة الجنسيات التي جاءت إلى لبنان لتؤمن المناخ الملائم لهذا العدو ليمارس غطرسته وجرائمه.

والمجازر الأخيرة في قانا والنبطية والمنصوري سلسلة مستمرة لن تنتهي إلا بسواعد مجاهدينا الأبطال ورجال المقاومة الأشاوس، الذين طلقوا الدنيا وصمموا على الجهاد وحماية أهلنا وقرانا المظلومة، وعاهدوا الله على أن يذيقوا هذا العدو الذل والهزيمة،

وسينصرهم الله حتماً، وفقاً لوعده المحتوم الذي ورد في قوله تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾⁽¹⁾.

ما هو السلام الصهيوني؟

لقد عرفنا أننا نواجه عدوّاً يتميز بمجموعة من الصفات، فهو يعتبر نفسه متميّزاً عرقيّاً عن باقي الأمم، ويعتبر نفسه «شعب الله المختار»، كما يدّعي أنّ له حقّاً تاريخياً ودينيّاً في أرض فلسطين وما حولها، ويعتبر أنّ حدود دولة إسرائيل اللاشريعة تمتدّ من الفرات إلى النيل، وقد صرّحت بروتوكولات حكماء صهيون بهذه الحقيقة، وقد أشار إلى ذلك موشي دايان عام 1967 عندما دخل القدس قائلاً: «لنا إرث في مكّة والمدينة».

العدوّ الصهيونيّ متمرّس على الخديعة والمكر، ولا يتورّع عن ارتكاب مختلف الجرائم في سبيل الوصول إلى أهدافه، وهو يعمل بذلك بحسب تعاليم التوراة المحرّفة. وهو لا يعتبر نفسه ملزماً بأيّ عهد أو ميثاق تجاه الأمم الأخرى، وقد نصّ القرآن على ذلك، فقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾⁽²⁾.

فهو عدوّ ماكر، لا يمكن الركون إليه، ولا الاطمئنان إلى شيء من عهوده ومواثيقه. إنّ الأطماع الصهيونيّة المصرّح بها في بروتوكولاتهم

(1) سورة محمد، الآية 7.

(2) سورة آل عمران، الآية 75.

وأقولهم تثير الريب حول أيّ دعوة منهم إلى السلام والصلح.

والواقع أنّهم لا يلجؤون إلى السلام ولا الصلح إلّا إذا عجزوا عن تحقيق أهدافهم عن طريق الحرب، فيسعون لتمرير مخطّطاتهم عن طريق السلم. فسلمهم حرب بأسلوب آخر، وخدعة ثعلب بزّي ناسك، أو ذئب بلباس حمل.

السلام الذي يريدون هو سلامهم الذي يحقّق أحلامهم، ويعبّد الطريق أمامهم للوصول إلى غاياتهم، السلام الذي يدّعون إليه يفتح الباب للغزو الثقافي والاقتصادي الذي يخدم تطلّعاتهم.

السلام الذي يريدون هو أن نضع أسلحتنا، ونُسقط بندقيّتنا، ونفتح أبوابنا، ونزاع من صدورنا وصدور أبنائنا العداء والكراهية لأعداء الله، هذا من جانبنا، أمّا من جانبهم فهم غير ملزمين بشيء.

أليس هذا هو المنطق الذي يتحدّث عنه العدو، وتحدّث عنه حليفته أمريكا! إنهم لا ينفكّون يطالبون بنزع سلاح المقاومة، ويطالبون بإسقاط آخر مظاهر القوّة التي يمكن أن تعيق مخطّطاتهم، فليس من حقّنا بنظرهم حتّى أن ندافع عن أنفسنا.

هذا، في الوقت الذي يتصاعد فيه الدعم للعدوّ، وتتوالى صفقات السلاح، وتسكت الأوساط الدوليّة عن البرامج النوويّة للعدوّ، وكأنّ هذا الأمر لا يهدّد الأمن الدوليّ.

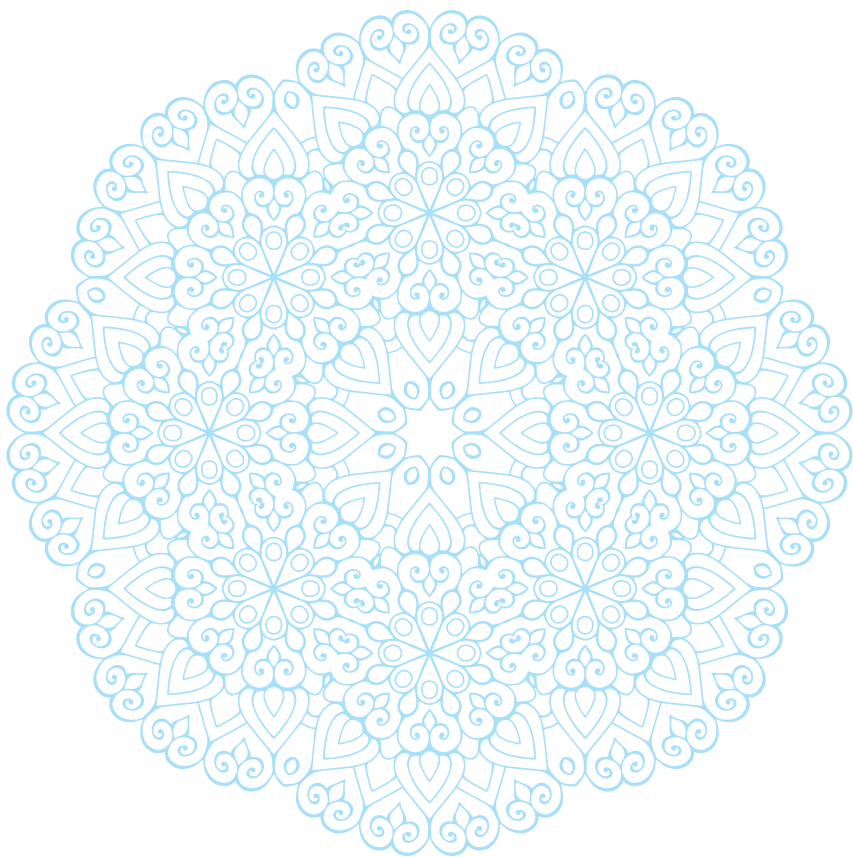
وقد أصبحت المنظّمات الدوليّة، بفضل الطغيان الأمريكيّ، تسبّح بحمد العدو الصهيونيّ، فتقوم ولا تقعد إذا أصيب صهيونيّ بأذى، وتغلق أسماعها دون أيّ صوت آتٍ من الشرق يستغيث

ويشكو الظلم والعدوان. هذا ليس سلاماً ولا أمناً، إنَّه الموت
البطيء.. إنَّه الذلّ والهوان. إنَّ الله لا يرضى لعباده الذلّ، وقد فتح
لهم باب الجهاد والمقاومة. فهيهات ممَّا الذلَّة!



الفصل الثاني

بيت المقدس العمق الديني عند المسلمين



«القدس الشريف» اسم المدينة المقدسة التي تمتلك تاريخاً عريقاً، وتحتلّ موقعاً مميزاً في قلوب المؤمنين، ومنزلة خاصة عند الأديان، بما فيها الدين الإسلامي. كان يطلق عليها في الماضي اسم «بيت المقدس»، وربما كان اسماً لخصوص المسجد الأقصى، قبلة المسلمين الأولى، ومسرى رسول الله ﷺ⁽¹⁾.

وقيل: هي الأرض المقدسة التي أمر نبي الله موسى عليه السلام قومه أن يدخلوها، كما في القرآن الكريم: ﴿يَقُومُوا أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾⁽²⁾.

وتعاني هذه المدينة اليوم من الأسر والاحتلال، ومن محاولات التدنيس والتشويه وتزوير المعالم التاريخية. وقد أطلق الإمام الخميني العظيم قدس سره على الجمعة الأخيرة من شهر رمضان المبارك اسم «يوم القدس» في خطوة لافتة جاءت بعد الانتصار الكبير للثورة الإسلامية في إيران، لتشير إلى الارتباط الوثيق بين الثورة الإسلامية في إيران وبين القضية الفلسطينية، ولتحتّ

(1) راجع: ﴿يَسْمِ اللَّهَ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ عَائِنَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، سورة الإسراء، الآية 1؛ سورة البقرة، الآيتان 142 - 144.

(2) سورة المائدة، الآية 21.

المسلمين كافة على تعبئة قواهم، ورص صفوفهم، وحشد طاقاتهم لتحرير القدس الشريف، وإنقاذ المسجد الأقصى من أيدي الغزاة الغاصبين، والصهاينة المحتلين.

اليوم الذي جعله الإمام الخميني قُدْسُهُ رمزاً ومناسبة لاستعادة روح الجهاد والمقاومة وتحرير المقدّسات، لم يأت اختياره عشوائياً، ولا مصادفة، بل جاء مقصوداً؛ نظراً إلى ما يمثّله شهر رمضان المبارك، ويوم الجمعة، والعشر الأواخر من الشهر المبارك على الخصوص، وهي أيام صوم، وعبادة، وإخلاص، وتزكية، وصفاء، وارتباط بالله عزّ وجلّ، إنها أيام بركة، ورحمة، ومغفرة، ودعاء، واستجابة، ولن يجد المسلمون أفضل من هذه الأيام المباركة للسعي من أجل فكّ أسر المدينة المقدّسة، وبيت المقدس، والمسجد الأقصى، ورفع راية التوحيد على أركانه، والأذان بالتكبير في أرجائه.

ذلك كلّه من أجل إخراج القضية الفلسطينية من قمقم الحصار القومي والإقليمي إلى دائرة أوسع بكثير، وهي دائرة العالم الإسلامي والقوى الإسلامية، عن طريق إبراز البُعد الديني، والتركيز عليه وربط القضية بعقيدة المسلمين، ومشاعرهم، وعواطفهم، وأحاسيسهم، وصلاتهم، وصومهم، وحجّهم.

من أين يكتسب الزمان أو المكان قدسيّته؟

سؤال قد يخطر بالبال، فالمسجد الحرام في مكّة والمسجد

النبي في المدينة والمسجد الأقصى في بيت المقدس، أماكن لها حرمتها وقدسيّتها عند المؤمنين، وهكذا كلّ مسجد وكلّ بقعة أرض لها حرمة أو قداسة لا تكتسب قداستها وموقعها من ما تحويه من سقوف وجدران، وما فيها من زخارف وفنون عمرانيّة، وإنّما من حركة التوحيد وعبادة الله والارتباط به -تعالى-، فعندما انتصر إبراهيم عليه السلام على الشياطين التي حاولت أن تثنيه عن الطاعة والتسليم لأمر ربّه بذبح ولده إسماعيل، وعندما فاز إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بأرقى مستوى من مستويات التسليم والاستسلام لأمر الله -تعالى-، أصبح المكان الذي جرت في أنحائه هذه المعجزة العظيمة مشعراً من مشاعر الله، يؤمّه المسلمون ويحجّون إليه، ويتمثّلون تلك المسيرة، ويتلمّسون خطوات التوحيد الخالص والفاء التام بين يدي الباري -عزّ وجلّ-.

إنّه إذن ظرف مكانيّ اكتسب قدسيّته من الحدث التوحيديّ والفعل العباديّ الخالص الذي وقع فيه.

كما أنّ قداسة أضرحة الأنبياء والأولياء والأئمّة الأطهار تكتسب قدسيّتها من قداسة الأجساد الطاهرة المطهّرة التي لم تدنّسها المعصية والتي تضمّنتها واحتضنتها.

والزمان كذلك، هو ظرف يكتسب مكانة ومنزلة من الحدث الذي يرتبط به ويقع فيه، والميزان دائماً باتّجاه ما يسمو بالإنسان ويقربه إلى ربّه، ويضعه على الصراط السويّ؛ ولذا كان شهر رمضان أفضل الشهور وليلة القدر أفضل الليالي على الإطلاق.



ولبيت المقدس قدسيّة خاصّة في جميع الأديان، ويكتسب قدسيّة خاصّة عند المسلمين، وليس ذلك من جهة الآثار القديمة القائمة فيه أو المندثرة، وإنّما هو من جهة كونه بيتاً «بنته الأنبياء وسكنته الأنبياء، ما فيه موضع شبر إلّا وقد صلّى فيه نبيّ أو أقام فيه ملك»⁽¹⁾، كما روي عن ابن عباس.

واسمه يشير إلى شأنه وشرفه ومكانته، فإنّ القدس هو الطهارة والتنزّه عن الأدناس، وأولها وعلى رأسها دنس الشرك والوثنيّة، فهو مكان عبادة وتطهّر من الذنوب، ومكان يُنزّه الله فيه ويُقدّس، ويُوحد فيه ويُطاع، وهذا هو ميزان القدسيّة عندنا.

بل يمكن أن يقال إنّ اتّخاذ «بيت المقدس» قبلةً في بداية البعثة النبويّة الشريفة يكشف عن تلك المكانة، حيث إنّ القبلة أثناء الصلاة هي وجهة محسوسة ومادّيّة ترمز إلى وجهة حركة المصلّي، وإلى ارتباطه العقائديّ والإيمانيّ والقلبيّ، وتؤكد هذه القضية الترابط والانسجام بين الأديان المحقّة التي تعدّ مراحل متوالية لدين الله الواحد الذي لا يتغيّر ولا يتبدّل، وإن تعدّدت الرسل والأنبياء، أو تغيّرت بعض الأحكام العباديّة على مستوى الشكل والظاهر، لا على مستوى المضمون والجوهر، ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾⁽²⁾.

(1) الحموي، ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1995م، ط2، ج5، ص167.

(2) سورة آل عمران، الآية 19.

ويؤكد ذلك أنّ الرسل ﷺ الذين بعثهم الله -تعالى- لهداية البشر يأتي كل واحد منهم مصداقاً لما بين يديه، مؤيداً لمن سبقه من الأنبياء والرسل، مبشراً بمن يأتي من بعده، وكذلك شأن الكتب التي أنزلها الله -تعالى-.

فالقرآن الكريم يأمر بالإيمان الرسل والأنبياء كلّهم، فيقول: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرٰهٖمَ وَإِسْمٰعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنۢ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِۦ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّٰهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللّٰهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّٰهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عٰبِدُونَ﴾⁽¹⁾.

أولى الناس ببيت المقدس

يتمسك الصهاينة بوعد توراتي مزعوم في الترويج لحركتهم العدوانية، مفاده أنّ الله - سبحانه وتعالى- قد أعطى هذه الأرض لأولاد إبراهيم ﷺ بكل ما فيها، حتى أبناء القبائل الذين كانوا يقطنون هناك، ثم يتوسّع العطاء ليشمل الأرض الواقعة بين النيل والفرات.

والذي يهمنّا التركيز عليه هنا ليس النقاش في صحة الوعد التوراتي وعدمه، فلا شكّ في أنّ التوراة المتداولة قد حُرِّفَت وغيّرت

معالمها، وإثما البحث في علاقة الصهاينة بهذا الأمر، وصلاحيته للعصور التي جاءت بعد عصر إبراهيم عليه السلام، بل بعد عصر موسى عليه السلام.

وفي هذا المجال، يجدر التأكيد على أنّ الله - سبحانه وتعالى - لا يجعل من الانتماء النسبيّ إلى النبيّ - أيّ نبيّ - منشأً مستقلاًّ وكاملاً للفضل واستحقاق العطاء الإلهيّ والمنزلة الرفيعة والكرامة عند الله؛ ولذا نجد أنّه - تعالى - يخاطب نوحاً عليه السلام في شأن ابنه المبتعد عن الصلاح، فيقول: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾⁽¹⁾.

ويقول رسول الله ﷺ عن سلمان الفارسيّ: «سلمان منّا أهل البيت»⁽²⁾.

فالميزان - إذًا - هو الانتماء العقائديّ والانقياد العمليّ والتبعية في كلّ شيء.

وعلى هذا الأساس، يصبح أهل الصلاح وأهل الإيمان والتقوى هم أتباع الرسل والأنبياء، وهم أولى الناس بهم في أيّ عصر كانوا، وفي أيّ بقعة عاشوا.

(1) سورة هود، الآية 46.

(2) الصديق، الشيخ محمّد بن عليّ، عيون أخبار الرضا عليه السلام، تصحيح وتعليق وتقديم: الشيخ حسين الأعلمي، الناشر: مؤسسة الأعلمي، بيروت - لبنان، 1404 هـ - 1984 م، لا. ط، ج2، ص70، ويمكن مراجعة: الطبرسيّ، الشيخ ميرزا حسين النوري، نفس الرحمن في فضائل سلمان، جواد القيوميّ الجزهريّ الأصفهانيّ، مؤسسة الأفاق، 1411 - 1369 ش، ط1، (كامل الكتاب)؛ مرتضى العامليّ، السيّد جعفر، سلمان الفارسيّ في مواجهة التحديّ، المركز الإسلاميّ للدراسات، 1430 - 2009 م، ط3 (كامل الكتاب).

ويشير القرآن الكريم إلى هذه النقطة بصراحة، فيقول: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ٦٧﴾ إِنَّ أَوَّلَى الْآلِاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾.

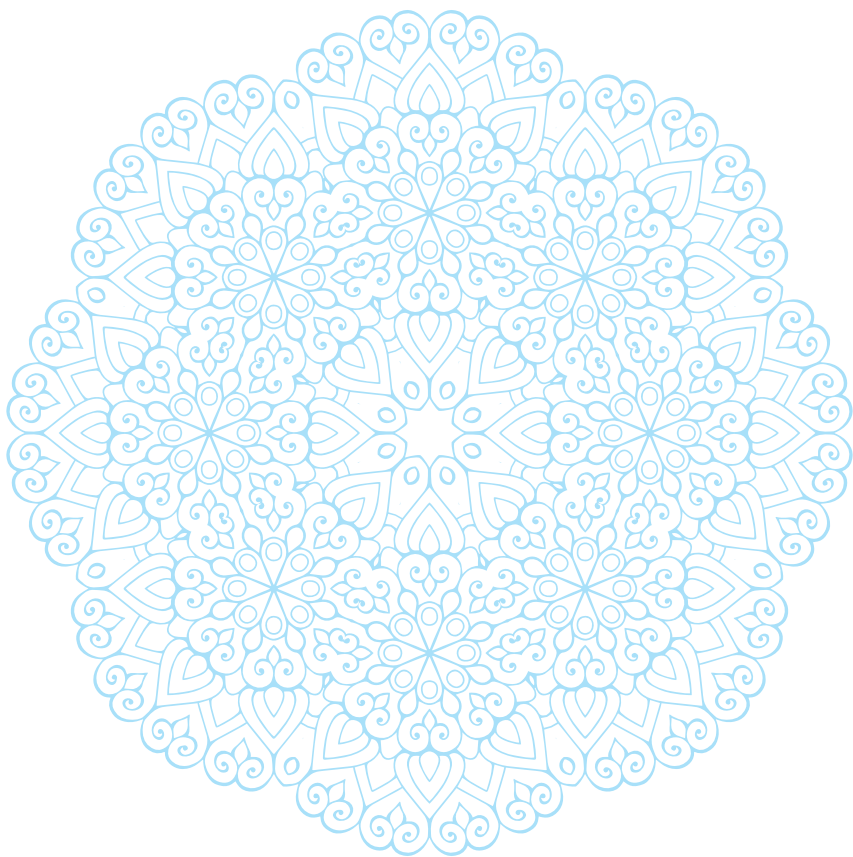
وانطلاقاً من هذه القاعدة، فإنه يمكن القول إن أولى الناس بموسى وبإبراهيم وبغيرهما من الأنبياء والرسل الكرام ﷺ هم الذين اتبعوهم على مبادئ دينهم الذي هو الإسلام، وثلة المؤمنين في عصرنا الحاضر الذين يرفعون شعار الدين الحق عقيدة وعملاً ومنهجاً، وهم أتباع الرسل والأنبياء وأئمة الهدى، وهم ورثة الكتب والرسالات، وهم الأولى بالمقدسات كلها؛ لأنهم الأقدر على الحفاظ على قدسيّتها وانتمائها الصحيح.

فنحن أهل القدس والمسجد الأقصى، كما أننا أهل مكة ومي والبيت الحرام والمسجد النبوي الشريف.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ٧٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٢﴾.

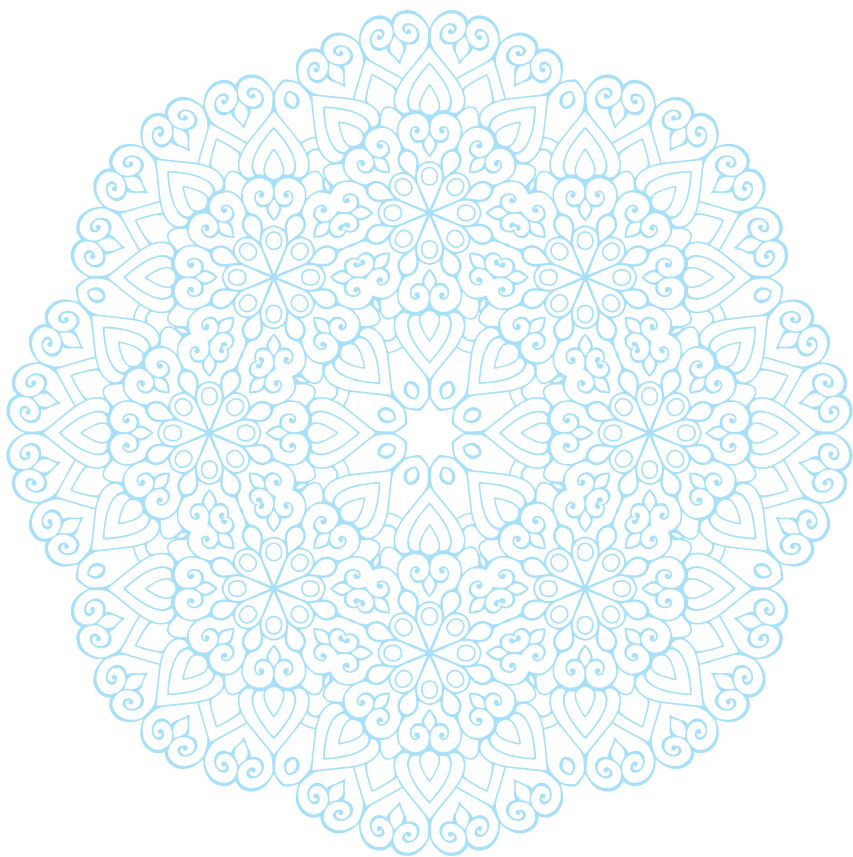
(1) سورة آل عمران، الآيتان 67-68.

(2) سورة التوبة، الآيتان 17-18.



الفصل الثالث

الجدل المثار حول شخصية المختار الثقفي



تمهيد

انطلق المختار بن أبي عبيد الله الثقفِي في السادس عشر من ربيع الآخر عام ستّة وستّين للهجرة في حركته المعروفة التي رفعت شعار «يا لثارات الحسين»، وتمكّن خلال سنة ونصف من أن يقضي على أكثر المشاركين في قتل الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته الكرام، فقتل عبيد الله بن زيّاد، وعمر بن سعد، والحسين بن نمير، وشمر بن ذي الجوشن، وحرملة بن كاهلة، وعمر بن الحجاج، ومرة بن منقذ، وقيس بن الأشعث، وسانان بن أنس وغيرهم، وتبّع كلّ من شارك في قتالٍ أو سلبٍ أو رضٍ لجسد الإمام الحسين عليه السلام، فقتل إنّه قتل ثمانية عشر ألفاً ممّن شاركوا في واقعة كربلاء.

وقد كان لنتائج هذه الحركة وقع طيّب في نفوس الهاشميين والهاشميّات، بمن فيهم الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام وعمّه محمّد المعروف بابن الحنفية، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «ما امتشطت فينا هاشميّة ولا اختضبت حتّى بعث إلينا المختار برؤوس الذين قتلوا الحسين عليه السلام»⁽¹⁾.

(1) الطوسي، الشيخ محمّد بن الحسن، اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي)، تحقيق: جواد القيّومي الأصفهاني، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم، 1427هـ، ط1، ج1، ص341.

ورُوي عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «لا تسبّوا المختار، فإنّه قد قتل قتلنا، وطلب بئارنا، وزوّج أراملنا، وقسّم فينا المال على العُسرة»⁽¹⁾.

وروي أنّ الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام لما أتى برأس عبيد الله بن زياد ورأس عمر بن سعد خرّ ساجداً، وقال: «الحمد لله الذي أدرك لي ثأري من أعدائي، وجزى المختار خيراً»⁽²⁾.

فمن هو المختار؟ وما هي الدوافع الحقيقيّة لحركته هذه؟ ما هو سرّ الخلاف الواقع حوله؟ أسئلة نحاول معالجتها مع المحافظة على الاختصار.

نظرة تاريخيّة حول المختار الثّقفيّ وثورته

وُلد المختار بن أبي عبيد الثّقفيّ عام الهجرة النبويّة الشريفة في الطائف، وانتقل مع أبيه أبي عبيد بن مسعود الثّقفيّ إلى المدينة المنورة في زمن خلافة عمر بن الخطّاب، ولم تلبث أن اشتعلت نار الحرب مع الفرس، الذين كانت دولتهم تُتّاحم الدولة الإسلاميّة في شمال شرق الجزيرة العربيّة، فأرسل عمر أبا عبيد الثّقفيّ على رأس جيش إلى العراق لمحاربتهم، ودارت المعركة التي أُطلق عليها «وقعة يوم الجسر» التي استشهد فيها أبو عبيد.

(1) الشيخ الطوسي، اختيار معرفة الرجال، مصدر سابق، ج 1، ص 340.

(2) المصدر نفس، ص 342.

وشبَّ المختار في المدينة بعد أبيه، لينقطع إلى بني هاشم، وشايع الإمام علياً عليه السلام، ورحل معه إلى الكوفة، وأقام فيها.

والذي يدلّ على إخلاص المختار لأهل البيت عليهم السلام أنّ مسلم بن عقيل حين قدّم الكوفة سفيراً للحسين عليه السلام، ومبعوثاً من قبله لتوطئة الأمور واستطلاع الحال، نزل أوّل ما نزل في بيت المختار، واتّخذة مقرّاً يلتقي فيه بالشيعة والأنصار، ثمّ انتقل عنه لأسباب أمنيّة بعد قدوم عبيد الله بن زياد إلى الكوفة.

وعندما عزم مسلم بن عقيل على الخروج، كان المختار خارج الكوفة في ضيعة له، فبلغه الخبر، فأسرع إلى الكوفة لنصرته، لكن ألقي عليه القبض، وزجّه عبيد الله بن زياد في السجن، فلذلك لم يشهد كربلاء.

وكتب المختار من السجن لصهره زوج أخته عبد الله بن عمر يطلب منه أن يشفع له عند يزيد وعبيد الله بن زياد، فلمّا علمت أخته صفيّة بأمره بكت وجزعت، فرقّ لها عبد الله بن عمر، وكتب إلى يزيد يطلب منه أن يكتب إلى ابن زياد بإطلاقه، فكتب يزيد إلى عبيد الله بن زياد: أمّا بعد فخلّ سبيل المختار بن أبي عبيد حين تنظر في كتابي.

ولمّا وصل الكتاب أخرجه ابن زياد من السجن، وأمره بالخروج من الكوفة في مهلة أقصاها ثلاثة أيّام. وبالفعل، خرج المختار في اليوم الثالث إلى الحجاز، وهو مصمّم على المطالبة بدم الإمام الحسين عليه السلام وشهداء الطفّ، وقد صرّح بذلك لأحد موالي

ثقيف الذي التقاه في الطريق، وكان يدعى ابن العرق، فقال له: «إذا سمعت بمكان قد ظهرتُ به في عصابة من المسلمين، فاطلب بدم الشهيد المظلوم المقتول بالطفّ سيّد المسلمين، وابن سيّدها، وابن بنت سيّد المسلمين الحسين بن عليّ، فوربك لأقتلنّ بقتله عدّة القتلى التي قتلت على دم يحيى بن زكريا، فجعل ابن العرق يتعجّب من قوله هذا!»⁽¹⁾.

ولمّا وصل المختار إلى مكّة، وجد عبد الله بن الزبير يدعو إلى نفسه سرّاً، فمضى إلى الطائف ليعود بعد سنة وببائع ابن الزبير على شروط شرطها عليه، وحارب معه أهل الشام، وكان أشدّ الناس على أهل الشام.

ولم يلبث المختار طويلاً في مكّة حتّى خرج إلى الكوفة، عازماً على تعبئة الناس للأخذ بالثأر من قتلة الإمام الحسين عليه السلام. وكانت الكوفة يومئذٍ تدين لعبد الله بن الزبير، وقد ولى عليها عبد الله بن يزيد الخطميّ، وعلى خراجها إبراهيم بن محمّد بن طلحة، فوثي بالمختار عندهما، فأودعاه السجن، وكانت في تلك الفترة حركة التّوايين بقيادة سليمان بن صُرد الخزاعيّ، ولم يكن المختار معجباً بطريقة سليمان بن صُرد، لكنّه راسل أصحابه العائدين إلى الكوفة من داخل السجن، وقيل إنّه أخذ بيعتهم، ووعدهم بالخروج بهم وقاتل عدوّهم.

(1) الأمين، السيّد محسن، أصدق الأخبار، مكتبة بصيرتي، قم، 1331 هـ، ش، لا ط، ص 34.

واستفاد هذه المرّة أيضاً من صهره عبد الله بن عمر، فكتب إليه أنّه سُجِنَ مظلوماً، وأنّه اتُّهم بهتاناً بما لم يفعل، فكتب عبد الله بن عمر إلى عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمّد بن طلحة في إطلاقه. ولم يطلقا سراحه حتّى أخذوا عليه العهود والمواثيق والكفالات بأن لا يخرج عليهما.

واستطاع المختار بعد خروجه من السجن أن يجمع تحت شعار الثأر لشهداء الطفّ والانتقام من قتلة الحسين عليه السلام، خلقاً كثيراً، واستطاع أن يقنع إبراهيم بن الأشتر بالانضمام إليه، وكان لهذا الأمر أكبر الأثر في تحقيق الانتصارات الباهرة، كما يظهر من الأحداث المتلاحقة، حيث كان إبراهيم بن الأشتر القائد المظفر لجيشه، والذي أنقذه في أكثر من محنة كادت تقضي على حركته قبل الوصول إلى غايته.

لقد استطاع المختار في فترة وجيزة أن يتغلّب على الكوفة وما يتبعها آنذاك من أمصار، كأذربيجان والريّ وإصفهان والموصل، وبقيت البصرة خارج دائرة نفوذه، مضافاً إلى الحجاز والشام.

وقد حكم الشام في أيّامه عبد الملك بن مروان، وكانت الحجاز والبصرة تحت نفوذ عبد الله بن الزبير؛ وهذا ما جعل المختار يواجه خطريّن، ويحارب على جبهتيّن: جبهة الشام من جهة الموصل وتكريت، وجبهة الحجاز من جهة البصرة.

وقد حقّق المختار انتصاراً ساحقاً في الجبهة الأولى بقيادة إبراهيم بن الأشتر التي قتل فيها الحصين بن نمير وعبيد الله بن زياد، وأخفق

في الجبهة الثانية التي قاتل فيها شخصياً، حيث كان جيش عبد الله بن الزبير بقيادة مصعب بن الزبير، وفيه أكثر الفارين من الكوفة، كسبث بن ربيعٍ ومحمد بن الأشعث وأمثالهما.

ومع نهاية هذه المواجهة كانت نهاية المختار في شهر رمضان عام سبع وستين للهجرة، بعد عام ونصف، نكل فيها أشد تنكيل بكل من شارك في قتال الحسين عليه السلام، وهدم دُورهم وصادر أموالهم، وكان في ذلك كله يبعث بالرؤوس المهمة والأساسية إلى مكة لتوضع بين يدي محمد بن علي (ابن الحنفية) والإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام مشفوعة بالأموال والهدايا.

وللمختار اليوم قبر يُزار بجوار مسجد الكوفة في الروضة الخاصة بمرقد مسلم بن عقيل.

الجدل المثار حول ثورة المختار الثقفي

قد تعرّض المختار لحملة من التشويه، وألصقت به تُهم عديدة، منها ادّعاء النبوة ونزول جبرائيل عليه، ومنها نسبة الكيسانية إليه، وأنه أول من روج القول بإمامة محمد بن الحنفية، وأمثال ذلك.

والذي ينبغي التنبيه إليه، أنّ المختار كان شديداً جداً على أهل الشام، وقيل إنّه لم يُقتل من أهل الشام في وقعة بعد صفين كما قُتل في الموصل في الموقعة التي قُتل فيها عبيد الله بن زياد، ويكفي ما تقدّم من إصراره على تتبّع قتلة الإمام الحسين عليه السلام بالتنكيل والقتل. ومثل هذا الأمر وحده يكفي لجعله عُرضة للتشنيع، وهدفاً

لحرب إعلامية تستهدف تشويه صورته عند الشيعة وغير الشيعة، فكيف إذا ضُمن إلى ذلك معاداة ابن الزبير، له واعتباره خارجاً على بيعته، وقد تقدّم أنّ نهاية المختار كانت على يد مصعب بن الزبير وليس على يد أهل الشام.

وقد فنّد العلامة المامقاني قدس سرّه في تنقيح المقال ما نسب إليه من اتهامات، وأبطلها. أمّا بالنسبة إلى اتهامه بادّعاء النبوة، فقال إنّ ذلك لم يردّ في كتب أصحابنا، وإنّما هو وارد في كتب العامة، ولعلّه دخلها من جراء الإشاعات التي لم يكن لها أصل، والتي صيغت في سياق الحملة الموجهة إليه وضده. وأمّا نزول الوحي عليه، فالأمر كذلك، وربما كان بسبب بعض الإخبارات التي كانت قد بلغته عن رسول الله ﷺ أو عن أمير المؤمنين عليه السلام والتي تحدّث عن غلام ثقيف يُقال له المختار، يُسلّطه الله -تعالى- للانتقام ممّن يقتلون الحسن والحسين عليه السلام، وقد نُقلت عنه مواقف عديدة كان يتعرّض فيها لهذا الأمر، ويخبر أنّه المنتقم لهم، وأنّه المنتصر على أعدائهم؛ ما فسح المجال أمام بعض الناس ليطّهمه بأنّه ينزل عليه الوحي، كوسيلة لإسقاطه والتقليل من قيمة الإخبارات التي يحدث عنها، فإنّ نسبتها إلى رسول الله ﷺ أو إلى أمير المؤمنين عليه السلام تمنحها قيمة خاصّة في نفوس الناس، وتترك أثرها في تعبئة الناس معه، لكنّها إذا صدرت عمّن يزعم نزول الوحي عليه، تفقد أيّ قيمة لها؛ لبطلان الزعم المذكور.

فنحن نستبعد مثل هذه التهم، بل نقطع ببطلانها؛ لما ورد من ترجم الأئمّة عليه والدعاء له بالخير، ولا يمكن صدور ذلك أبداً عن



أئمة أهل البيت عليهم السلام فيما لو صحّ ادّعاؤه للنبوّة ونزول الوحي عليه، وقد ورد ترحم الإمام الباقر عليه السلام عليه في خبر يرويه عبد الله بن شريك قال:

«دخلنا على أبي جعفر عليه السلام يوم النحر، وهو متكّ، وقد أرسل إلى الحلاق، فقعدت بين يديه، إذ دخل عليه شيخ من أهل الكوفة، فتناول يده ليقبلها، فمنعه، ثمّ قال: من أنت؟ قال: أنا أبو محمّد الحكم ابن المختار بن أبي عبيد، وكان متباعدًا عن أبي جعفر عليه السلام فمدّ يده إليه حتّى كاد يقعه في حجره بعد منعه يده، ثمّ قال: أصلحك الله، إنّ الناس قد أكثروا في أبي وقالوا والقول -والله- قولك، قال: وأيّ شيء يقولون؟ قال: يقولون: كذاب!! ولا تأمرني بشيء إلّا قبلته، فقال: سبحان الله! أخبرني أبي -والله- أنّ مهرّميّ كان ممّا بعث به المختار، أولم يبن دُورنا، وقتل قاتلنا، وطلب بدمائنا، رحمه الله -إلى أن قال-: رحم الله أباك، رحم الله أباك، ما ترك لنا حقًّا عند أحد إلّا طلبه، قتل قاتلنا، وطلب بدمائنا»⁽¹⁾.

وقد أثار بعض الباحثين شبهة حول المختار من جهة ما ورد من أنّ الإمام زين العابدين عليّ بن الحسين ردّ وفداً قادماً من قبل المختار بكتاب وأموالٍ، فردّهم عن بابه، وامتنع عن قبول المال، ممّا يستوحى منه عدم الرضى عنه.

ولكنّ الأخبار الكثيرة الواردة حول قبول الأموال منه والترحم عليه بسبب ذلك، تكشف عن أنّ في الأمر سرّاً ربّما ينكشف في ما

رُوي من أنَّ الإمام عليَّ بن الحسين عليه السلام بعد أن وليَّ عبد الملك بن مروان أمر الخلافة في الشام بعث إليه أنَّ المختار كان قد بعث إليه بمئة ألف درهم، وأنه كره أن يقبلها منه، وخاف أن يردّها، فتركها في بيت، فكتب إليه عبد الملك: خذها طيبة هنيئة⁽¹⁾.

هذا يكشف عن أنَّ الرفض كان لأسباب أمنيّة، ولئلاَّ يطالب بذلك من قبل بني أميّة وبني مروان، بعد أن كان يبدو أنَّ الأمور تسير في اتجاه عودة شوكتهم وسلطانهم، وإلاَّ فلو كانت تلك الأموال ممّا لا يجوز قبوله فإذن عبد الملك لا يغيّر من الحال شيئاً.

ولا شكّ في أنَّ إعلان الرضى والتأييد العلنيّ لحركة المختار من شأنه أن يجرّ على بني هاشم عامّة وعلى أهل البيت خاصّة، الكثير من المآسي والويلات التي كانوا يُعانون منها.

ومن الشواهد في هذا المجال ما نقله ابن نَمَا عن والده في رسالته في أخبار المختار، عن جماعة من أهل الكوفة أرادوا التأكّد من مدى صحّة دعوة المختار، فعزموا على السفر إلى المدينة لاستطلاع رأي ابن الحنفية، فجاؤوا فدخلوا عليه وأخبروه بأمر المختار، فقال لهم: «قوموا بنا إلى إمامي وإمامكم عليّ بن الحسين عليه السلام، فلمّا دخلوا عليه أخبره الخبر، قال: يا عمّ، لو أنّ عبداً زنجياً تعصّب لنا أهل البيت لوجب على الناس مؤازرته، وقد وليّتك هذا الأمر، فاصنع ما شئت»⁽²⁾.

(1) المجلسي، العلامة محمد باقر بن محمد تقی، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، مؤسسة الوفاء، لبنان - بيروت، 1403 هـ - 1983 م، ط2، ج45، ص346.

(2) ابن نما الحليّ، ذوب النضار، جعفر بن محمّد، تحقيق: فارس حسّون كريم، مؤسسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرفة، إيران - قم، 1416 هـ، ط1، ص97.

وقد أعطاه قاعدة عامّة تفيد جواز القيام بذلك ووجوب مؤازرته عليه؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى جعل الأمر إليه في هذه القضية؛ ما يوحي أنّه كان يريد إبعاد الأنظار عن نفسه ﷺ، ودفع محمّد بن الحنفية إلى الواجهة في هذا الأمر، وهو ما تقتضيه الأوضاع القائمة آنذاك.

ولعلّه من أجل ذلك ارتبط اسم المختار بابن الحنفية، وصار المختار يتحدث عن أنّه نائبه، وأنّه مأذون من قبله في الأخذ بالثأر.

هذا كلّ، مضافاً إلى ما نقله المؤرّخون من استعانة ابن الحنفية واستنجاهه بالمختار لرفع الحصار عنه عندما حصره ابن الزبير وحاصر جماعته وهدّدهم بالإحراق والقتل، فبعث المختار برسيرة فكّت الحصار عنهم.

وأما ما نسب إلى المختار من مذهب الكيسانية والقول بإمامة محمّد بن الحنفية، فهو ممّا لم يثبت بوجه قاطع، بل إنّ إرسال الرؤوس والأموال للإمام عليّ بن الحسين ﷺ ينافي ذلك. نعم، ربما كان منشأ هذه التهمة ما ذكرنا من تصدير الإمام ﷺ لعمّه وإيكال الأمر إليه في هذه القضية؛ ممّا جعل بعض الجهّال يتوهّم أنّ مراجعة المختار لمحمّد بن الحنفية، وترويج نيابته عنه، وأنّه يعمل بإذنه، هو قول بإمامته، وهو ما لم يثبت بوجه واضح وبديل ساطع، ومذهب الكيسانية إنّما نشأ بعد وفاة المختار.

ولا يمنع ذلك أن يعتمد المختار أسلوب الإيهام والتمويه للوصول إلى غايته، فربّما استعمل وسائل التورية والحيلة للتأثير على بعض

العوام، ومن ذلك الإكثار من الإسجاع والعبارات المنمّقة، بل ربّما ابتدع كتاباً مزعوماً من محمّد بن الحنفية لإبراهيم بن الأشتر وأشهد عليه بعض أصحابه كوسيلة إقناعية، كانت السبب المباشر في مبايعة ابن الأشتر له وانضمامه إليه، وقد شكّ في صحّته إبراهيم لولا شهادة الرجال الثلاثة، وقد نُقل تشكيك الشعبي -الذي كان حاضراً- في صحّته، وسكوته لرغبته الشديدة في مضيّ الأمور بالاتّجاه الذي أَرادَه المختار.

ولعلّ هذا هو المقصود في ما ورد في بعض الأخبار من أنّه كان يكذب على عليّ بن الحسين عليه السلام، وذلك بادّعاء النيابة عنه مثلاً أو أمره بذلك، لإقناع العامة والتأثير عليهم.

ومهما يكن، فإنّ النتائج التي استطاع المختار أن يصل إليها، والإنجازات التي حقّقها -بقطع النظر عن استقامة المختار وعدمها- كانت موضع قبول أئمة أهل البيت عليهم السلام وتقديرهم، ودعائهم له وترحمهم عليه يدلّان على سلامة نيّته، وهذا لا يمنع من كونه راغباً في الإمارة والحكم، كما يُحكى عنه في بعض تصريحاته، ولا يمنع أن تكون بعض الأساليب التي اعتمدها في إقناع أتباعه، والتي استعملها في التنكيل بأعدائه، ممّا لا يوافق عليها الدين.

لكنّه على مستوى النتيجة الكبرى يستحقّ التقدير. ولا يُستبعد صحّة ما روي من أنّه تناله شفاعة الإمام الحسين عليه السلام يوم القيامة، ففي الخبر المرويّ عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه «إذا كان يوم القيامة مرّ رسول الله ﷺ بشفير النار وأمير المؤمنين والحسن والحسين عليه السلام، فيصيح صائح من النار: يا رسول



الله ﷻ أغثني - ثلاثاً - فلا يُجيبه، فينادي يا أمير المؤمنين - ثلاثاً - أغثني، فلا يُجيبه، فينادي يا حسين - ثلاثاً - أغثني، فأنا قاتل أعدائك، قال: فيقول له رسول الله ﷺ: قد احتجّ عليك، قال: فينقضّ عليه كأنّه عُقاب كاسر فيُخرجه من النار...»⁽¹⁾. وهذا الخبر يدلّ على حُسن عاقبته بسبب ما أقدم عليه، وذلك دليل سلامة نيّته في ذلك واستحقاقه الشفاعة بذلك، ولا ينافي ذلك أن يُعذّب ردها من الزمن بسبب ذنوب أخرى أو هفوات اجترحها.

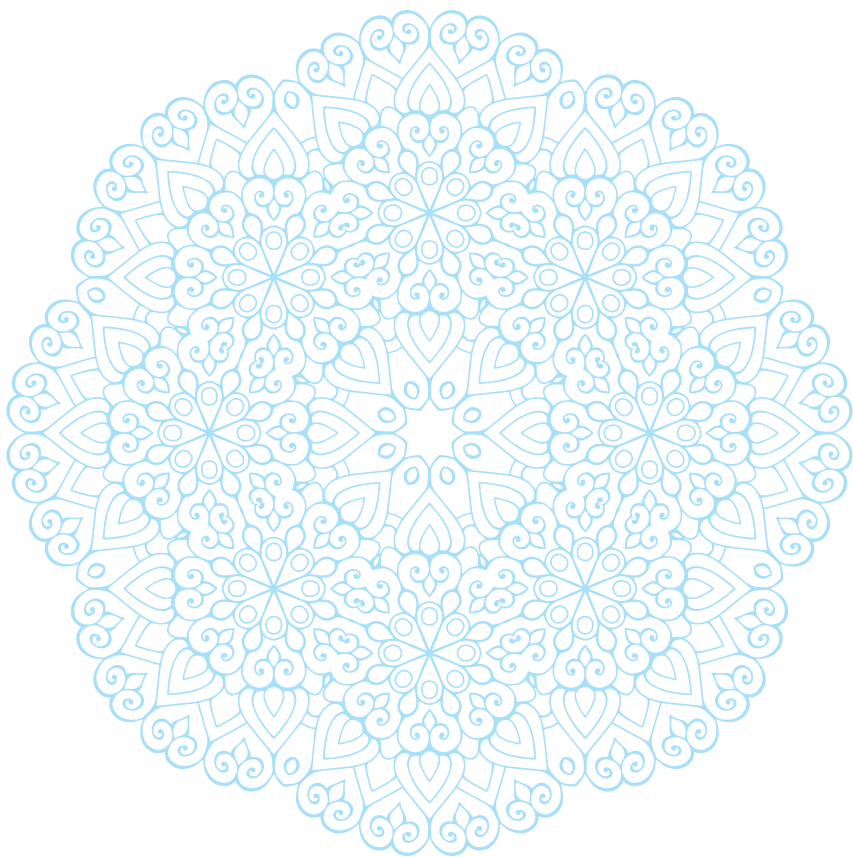
وبعد هذا كلّه، نوّد أنّ نشير إلى أنّ معظم محقّقينا قد أثنوا عليه وعدّوه في جملة المقبولين، كالعلامة المامقاني وابن طاووس وابن داود، وغيرهم، وقد ضعّف السيّد أبو القاسم الخوئي روايات الذمّ كلّها الواردة فيه، فراجع.

وقد عدّ العلامة الأميني في موسوعته الكبرى «الغدير» أسماء عشرين مصتفاً في أخبار المختار، وهو ما يكشف عن مدى اهتمام علمائنا وباحثينا بشأنه، وبإظهار فضله، وكشف واقع نهضته.

(1) ابن إدريس الحلّي، الشيخ محمّد بن أحمد، مستطرفات السرائر «باب النوادر» (موسوعة ابن إدريس الحلّي)، تحقيق وتقديم: السيّد محمّد مهدي الموسوي الخراساني، العتبة العلوية المقدّسة، 1429 - 2008م، ط1، ص80.

الفصل الرابع

الخواجة نصير الدين الطوسي قَدَسَ سِرُّهُ بين العلم والسياسة



ولادته ووفاته⁽¹⁾

يُعدّ محمّد بن محمّد بن الحسن الطوسيّ الملقّب بـ(نصير الدين) علماً من أعلام الفكر والدين. عاش في القرن السابع الهجريّ، ولمع اسمه بين ذوي التحقيق، وأقرّ بفضلله ومنزلته العدو والصديق.

وُلد في طوس بخراسان في 11 جمادى الأولى سنة (597) للهجرة، وتوفيّ يوم الغدير سنة (672هـ)، ودُفن بجوار ضريح الإمامين موسى الكاظم ومحمّد الجواد عليهما السلام بالقرب من بغداد.

مكانته العلميّة

وصفه تلميذه العلامة الحليّ قُدس سرّه بأنّه أفضل أهل عصره في العلوم العقلية والنقلية، وله مصنّفات كثيرة في العلوم الحكمية والأحكام الشرعية على مذهب الإمامية، وقال: «وكان أشرف من شاهدها في الأخلاق، نور الله مضجعه، قرأت عليه إلهيات الشفاء

(1) راجع ترجمته مفصّلة: الأمين، السيد محسن، أعيان الشيعة، حققه وأخرجه: حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لا، ط، لا، ط، ج9، ص414: الأمين، حسن، مستدركات أعيان الشيعة، دار التعارف، لبنان-بيروت، 1408 - 1987م، لا، ط، ج1، ص197: الميلاني، السيد علي الحسيني، الشيخ نصير الدين الطوسيّ وسقوط بغداد، مركز الأبحاث العقائدية، إيران - قم، 1421، ط1 (كامل الكتاب).

لأبي عليّ ابن سينا، وبعض التذكرة في الهيئة تصنيفه، ثمّ أدركه الموت المحتوم، قدّس الله روحه»⁽¹⁾.

وقال عنه السيّد التفرّيشيّ في كتابه نقد الرجال: «نصير الملة والدين، قدوة المحقّقين، سلطان الحكماء والمتكلّمين، انتهت رياسة الإماميّة في زمانه إليه، وأمره في علوّ قدره، وعِظم شأنه، وسموّ مرتبته، وتبحّره في العلوم العقليّة والنقليّة، ودقّة نظره، وإصابة رأيه، وحديثه، وإحرازه قصبات السبق في مضمار التحقيق والتدقيق، أشهر من أن يذكر، وفوق ما يحوم حوله العبارة. له مصنّفات لم ترَ عين الزمان مثلها»⁽²⁾.

وترجم له محمّد شاکر الکتبيّ في «فوات الوفيّات»، فكان في ما قال: «نصير الدين الطوسيّ، الفيلسوف، صاحب علم الرياضيّ، كان رأساً في علم الأوائل، ولا سيّما في الأرصاد والمجسّطيّ (اسم الموسوعة الفلكيّة التي وضعها بطليموس، وصارت مرجعاً لعلماء الفلك)، فإنّه فاق الكبار.. وكان ذا حرمة وافرة ومنزلة عالية عند هولاء، وكان يطيعه في ما يشير به عليه، والأموال في تصريفه، وابتنى بـ«مراغة» قبة ورصدّاً عظيماً (شرع في تأسيسه سنة 657هـ، وجعل في الرصد داراً واسعة، واستنبط آلات عديدة شريفة للإرصاد)، واتخذ في ذلك خزانة عظيمة فسيحة الأرجاء، وملأها من الكتب التي تُهبّ من بغداد والشام والجزيرة حتّى تجمّع فيها

(1) نقله: الحرّ العامليّ، الشيخ محمّد بن الحسن، أمل الآمل، مكتبة الأندلس، بغداد، لات، لا.ط، ج2، ص399.

(2) نقله: القصّيّ، الشيخ عبّاس، الكنى والألقاب، منشورات مكتبة الصدر، لا.م، لا.ت، لا.ط، ص36.

زيادة على أربعمئة ألف مجلد، (وجعل تلميذه المؤرخ المشهور ابن الفوطي خزاناً لدار الكتب)، وقرّر بالرصد المنجمين والفلاسفة، وجعل له الأوقات، وكان حسن الصورة، سمحاً كريماً، جواداً حليماً، حسن العشرة عزيز الفضل.

ولقد أطبقت كلمات العلماء والمحققين والفقهاء والمحدثين على علو منزلته وسمو مقامه، وعظيم فضله»⁽¹⁾.

مؤلفاته

له مصنفات عدّة في مختلف العلوم والفنون، عدّ منها السيّد الأمين في موسوعة «أعيان الشيعة» ثلاثة وثمانين كتاباً ورسالة في الفلك والرياضيات والأخلاق والتفسير والتاريخ والجغرافيا والفقه والطب والتربية والتعليم والمنطق والفلسفة والحكمة وفي علم الكلام.

وإن دلّ ذلك على شيء، فإنّما يدلّ على سعة معرفته وغزارة علمه وعلوّ همّته. ولعلّ أغلب مصنفاته كانت في علمي الفلك والرياضيات، ثمّ في الفلسفة وعلم الكلام، وكان قد يُعتبر زمانه زمان جذب وإعراض عن العلم والعلماء؛ ممّا دفعه إلى بذل الغالي والنفيس في سبيل نشر العلم، وتشجيع العلماء، واغتنام الفرص والإمكانات، لجمعهم ورعايتهم وحمايتهم من الأخطار التي كانت تُهدّد بهم، فقد

(1) الكتيبي، محمّد بن شاكر، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1974م، ط 1، ج 2، ص 230.



عاصر أخطر الحروب والغزوات التي قادها أهل الجهل والإلحاد وأعداء العلم والعلماء، لكنّه استطاع بفضل حنكته وحسن تديبره وسلامة تفكيره أن يحوّل هؤلاء الغزاة إلى حماة لمشاريعه العلميّة، وفي ظلّ سلطانيهم أسّس أعظم المكتبات وأهمّ المراصد، ووضع نظاماً لرعاية العلماء، وكرسّ عائدات الأوقاف التي كانت تُصَرّف فيما لا ثمره فيه ولا نفع للدين، كرسّها لخدمة العلم والإنفاق على العلماء.

يقول في مقدّمة كتابه «نقد المحصّل»: «وفي هذا الزمان، لمّا انصرفت الهمم عن تحصيل الحقّ بالتحقيق، وزلّت الأقدام عن سواء الطريق، بحيث لا يوجد راغب في العلوم، ولا خاطب للفضيلة، وصارت الطباع كأنّها مجبولة على الجهل والرذيلة، اللهمّ إلّا بقيّة يرمون ما يرومون رمية رامٍ في ليلة ظلماء، ويخبطون فيما ينحون نحوه خبط عشواء، ولم يبقَ في الكتب التي يتداولونها من علم الأصول عيان ولا خبر، ولا من تمهيد القواعد الحقيقيّة عين ولا أثر، سوى كتاب المحصّل الذي اسمه غير مطابق لمعناه، وبيانه غير موصل إلى دعواه، وهم يحسبون أنّه في ذلك العلم كافٍ، وعن أمراض الجهل والتقليد شافٍ، والحقّ أنّ فيه من الغثّ والسمين ما لا يحصى، والمعتمد عليه في إصابة اليقين بطائل لا يحظى، بل يجعل طالب الحقّ ينظر فيه كعطشان يصل إلى السراب، ويصير المتحيّر في الطرق المختلفة أيسأ عن الظفر بالصواب...»⁽¹⁾.

(1) نقله: المحقّق الحلّي، الحسن بن يوسف، كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، تحقيق: آية الله حسن زاده آملّي، لا، ن، لا، م، 1417 هـ، ط، 7، ص. 6.

هذا المقطع من كلامه يكشف عن عمق تألمه للواقع الذي كان يعيشه، وهو الذي دفعه إلى بذل المزيد من الاهتمام بسد الفراغ، فشمّر عن ساعد الجدّ والاجتهاد، لتغيير ذلك الواقع، والكشف عن الحقيقة الناصعة الجليّة بأوضح البيان وأقرب الطرق والبرهان العلميّ.

فكره ومنهجه

ولقد تمكّن الخواجة نصير الدين الطوسيّ من تسخير القواعد الفلسفيّة والبراهين العقليّة لخدمة الأصول الدينيّة، وأدخل المنهج الفلسفيّ إلى علم الكلام، وقام بتمحيص ونقد النظريّات الفلسفيّة القديمة التي كانت حتّى زمانه تسيطر على مفكّري الإسلام، والتي أخذوها كما هي دون تمحيص، وتركت أثرها في التفكير الفلسفيّ عند المسلمين منذ دخول الفلسفة اليونانيّة حتّى عصر المحقّق الطوسيّ.

وعلى صعيد الفكر الرياضيّ الذي كان يحمله الخواجة نصير الدين الطوسيّ؛ فيقول عنه الأستاذ طوقان في كتاب «تراث العرب العلميّ»: «تجلّى لنا عظمة الطوسيّ وأثره في تاريخ الفكر الرياضيّ وغير الرياضيّ، إذا علمنا أنّ المثلثات هي ملح كثير من العلوم الرياضيّة، والبحوث الفلكيّة والهندسيّة، وأنّه لا يمكن لهذه أن تستغني عن المثلثات ومعادلاتها، ولا يخفى أنّ هذه المعادلات هي عامل أساسيٌّ لاستغلال القوانين الطبيعيّة والهندسيّة في ميادين الاختراع والاكتشاف».

ويقول أيضاً: «والطوسيّ أوّل من استعمل الحالات الستّ للمثلث الكرويّ القائم الزاوية، وقد أدخلها في كتابه «الشكل القطّاع». ومن يطالع هذا الكتاب يجد فيه ما يجد في أحسن الكتب الحديثة في المثلثات على نوعيها، ولا شكّ في أنّ لهذا الكتاب أثراً كبيراً في المثلثات وارتقائها، وفي وسعنا القول إنّ العلماء -في ما بعد- لم يزدوا شيئاً هاماً في نظريّات هذا الكتاب ودعاويه»⁽¹⁾.

ويدلّ الانتقاد الذي وضعه نصير الدين الطوسيّ للمجسطيّ على عبقرية وطول باعه في الفلك، ويمكن القول إنّ انتقاده هذا كان خطوةً تمهيديةً للإصلاحات التي تقدّم بها علماء الفلك فيما بعد.

والحقيقة، إنّ هذه الأسطر لا يمكنها أن تعرض صورة حقيقيّة عن الدور الكبير للمحقّق الطوسيّ في تطوير علوم الفلك والرياضيّات والفلسفة وعلم الكلام.

في قلاع الإسماعيليين⁽²⁾

لقد مرّ الخواجة نصير الدين الطوسيّ بثلاث مراحل من حياته:

المرحلة الأولى: وهي الفترة الممتدّة من ولادته حتّى التحاقه بالإسماعيليين، وهي فترة طويلة نسبياً قضّاها بين مسقط رأسه «طوس» في كنف والده الذي كان أستاذه وشيخه الأوّل، و«نيسابور»

(1) طوقان، قدرّي، تراث العرب العمليّ في الرياضيّات والفلك، دار الشروق، بيروت، 1963م، ط3، الفصل الخامس (عصر الطوسيّ).

(2) الأمين، حسن، الإسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، مطبعة باقري، 1417هـ، ط2، (كامل الكتاب).

التي انتقل إليها أيضاً بحثاً عن أساطين العلم والمعرفة.

هذه المرحلة من حياته لم يكن فيها ما يستدعي اهتمام المؤرخين كثيراً، عدا دراسته على أعلام عصره المشهورين، ونبوغه بين أقرانه، وبداية سطوع نجمه العلمي.

المرحلة الثانية: بدأت حين عصف المغول بالبلاد الإسلامية، وأخذت تسقط مدنها الواحدة تلو الأخرى. وفي هذه العاصفة الهوجاء التي لا تبقي ولا تذر، لم يكن أمام الناس إلا الفرار أو انتظار القتل والسلب والدمار.

وقد وصل الغزو المغولي بقيادة «جنكيز خان» إلى نيسابور بلد العلم والفلاسفة أثناء وجود المحقق الطوسي فيها، وكانت أصداء الدمار والقتل التي خلفها هذا الغزو في مدن خراسان ونواحيها قد طرقت أسماع العلماء هناك، وقد انهزم أمام الزحف الهائج السلطان محمد خوارزم شاه، وانهارت جميع أسباب المقاومة التي كانت بيده.

ولم يصمد أمام المغول آنذاك سوى قلاع القرامطة الإسماعيليين التي ظلت تقاوم الهجمات وتعجز الزاحفين، بل كان الإسماعيليون ينظمون حرب عصابات أوقعت بالمهاجمين خسائر فادحة.

فلم يجد الفيلسوف الطوسي أمامه من ملجأ إلا هذه القلاع، فيمّ شطرها، فسافر إلى «قهستان» التي كانت يتولاها ناصر الدين عبد الرحيم بن أبي منصور، فنزل ضيفاً عليه، وهنا يختلف

المؤرّخون، فبعضهم يقول إنّه ذهب بدعوة منه بعد أن كان سمع بفضله ومنزلته العلميّة، وبعضهم يقول إنّه هو لجأ إليه، وبعضهم يذهب إلى أنّ الطوسي قد أخذ بالقوّة إلى هناك، وأكرهه على المكوث عندهم.

ومهما يكن، فإنّ المعروف أنّه قد أُلّف في هذه الفترة كتابه «أخلاق ناصري» بالفارسيّة لمضيفه، وسماه باسمه، ووضع كتباً أخرى، ولم يدم الأمر طويلاً حتى استُدعي من قبل زعيم الإسماعيليين علاء الدين بن محمّد، الذي كان يقيم في قلعة «ميمون دز»، ويقال إنّه كان هناك سجيناً عنده تحت الإقامة الجبريّة.

بعد أن اغتيل علاء الدين، بقي الطوسي مع ابنه ركن الدين في قلعة «الموت» حتّى استسلام ركن الدين للمغول في حملتهم الثانية بقيادة هولاكو بعد حصار طويل عام 653هـ.

وبه انتهت المرحلة الثانية من حياته، التي قضّاها مع الإسماعيليين في تلك القلاع، ولا يُدرى إن كان هو الذي اختار الإقامة بينهم فراراً من المغول، أم أنّهم هم الذين أجبروه على ذلك، لكنّ المعروف أنّه كان للإسماعيليين اهتمام خاصّ بالفلسفة والحكمة، ولا شكّ في أنّ الخواجه نصير الدين الفيلسوف يمتلك حظاً وافراً منه؛ ممّا يجعلهم يحرصون على بقائه بينهم.

يتحدّث السيّد حسن الصدر في كتاب «تأسيس الشيعة» عن نهاية هذه المرحلة فيقول: «... وحُبس في حصن الديلم (يعني قلعة الموت)

بأمر خورشيد شاه القرمطيّ، فلما غلبه الترك (يعني المغول)، وقتلوه، وأخذوا حصن الديلم، أطلقوا نصير الدين الطوسيّ من الحبس وأكرموه، لعلمه بعلم النجوم، وصار من عداد وزراءهم»⁽¹⁾.

ويؤيد «سرجان ملككم» في تاريخه قضيّة إرغام الطوسيّ على السفر إلى قلعة الموت، وفي «درة الأخبار» ما يدلّ أيضاً على أنّه أكره على الذهاب وهدّد بالقتل، وبقي هناك شبه أسير أو سجين. بينما يذهب كريم أقاسرائيّ في «مسامرة الأخبار» إلى غير ذلك، ويرى أنّه ذهب بإرادته، وأنّه كان مستوزراً عندهم، معزّزاً مكرّماً.

والأمر الغامض في هذه المرحلة أنّه كيف عاش الشيخ نصير الدين الطوسيّ بين القرامطة الإسماعيليين والحال أنّه لم يُخفِ مذهبه الإماميّ في كتبه ومؤلفاته وأشعاره، حيث إنّنا لم نجد ما يشير إلى أنّه كان يعلن مذهبه أو يخفيه عنهم.

المرحلة الثالثة: في معيّة هولأكو:

في المرحلة الثالثة من حياته، صحب المحقّق الطوسيّ هولأكو المغوليّ، وذلك بعد سقوط قلاع الإسماعيليين، ويقال إنّّه خرج مع ركن الدين خورشاه القرمطيّ وبقية الوزراء والحواشي بعد الحصار الطويل، وبعد المراسلات والوفود المتكرّرة بين ركن الدين وهولأكو انتهت باستسلام ركن الدين وأركان دولته، وقد استبقى هولأكو الشيخ نصير الدين والطبيين الموجودين ضمن حاشية خورشاه، وقتل الباقيين بعد استسلامهم.

ومنذ ذلك الحين، صار الشيخ نصير الدين في قبضة هولاء، ولقي اهتماماً خاصاً يقال إنّه ناشئ من اهتمام هولاء بعلم النجوم والفلك الذي كان الخواجة نصير الدين بارعاً فيه، واستفاد الشيخ نصير الدين من هذه الخطوة خير استفادة، فأقنع هولاء بأهميّة بناء مرصد في «مراغة» عاصمتهم آنذاك، بل استطاع بفضل حنكته وحسن تديره ولباقة أسلوبه أن ينقذ جزءاً كبيراً من التراث العلميّ من الإتلاف، فكانت المكتبة الضخمة التي بناها إلى جانب مرصد «مراغة»، والتي ضمت ما يزيد على أربعمئة ألف كتاب جاء بها من الأمصار والأقطار بعد أن كانت كلّها في معرض السلب والنهب، وقد جنّب الحوزات العلميّة لفقهاء الإماميّة وغيرهم أخطار الحرب والاحتلال وما يجرّه من دمار، كما حصل بالنسبة إلى مدينة الحلة الفيحاء، التي كانت آنذاك حاضرة علميّة، تخرّج منها عدد كبير من فقهاء الشيعة الإماميّة.

وقد كان من نتائج السياسة الحكيمة والذكيّة للخواجة نصير الدين أن حوّل الغزاة الملحدين وحملة القتل والدمار، إلى حماة للمؤسّسات الفكريّة، ورعاة للحضارة العلميّة.

بل استطاع قُدْسُهُ أَنْ يهزم الغزاة الأشداء بلا سيف ولا حراب ولا خيل ولا ركاب، وذلك بقوة فكره، وغزارة علمه، وعمق وعيه، وحسن سياسته، حيث جعل هؤلاء الغزاة يدخلون الإسلام، ويحمونه، ويحملونه معهم إلى بلادهم التي جاؤوا منها؛ فالمعروف تاريخياً أنّ ابن هولاء الذي حكم بعد أبيه، والذي يُدعى (تكودار)، كان قد أعلن إسلامه، وصار اسمه (أحمد تكودار)، وأسلمت الدولة المغوليّة بإسلامه.

وقد أثبت الخواجة نصير الدين بذلك تفوق سلاح الفكر والعقيدة على كلّ سلاح، إذا أحسن استخدامه والاستفادة منه، ولو لم يكن للخواجة إلّا هذه الفضيلة لكفاه عزّاً وفخراً، فعندما كان الخليفة العبّاسيّ المستعصم غارقاً في متع الدنيا وزخارفها، ومنشغلاً في جواريه التي قارب عددها ألف جارية -كما قيل-، وعندما كان أركان دولته يتسابقون للإيقاع بالخليفة والتآمر عليه، كان الخواجة نصير الدين يفكر في مستقبل الإسلام، ويخطّط لإنقاذ المؤسسات العلميّة وحفظ التراث وتطويره، وقد نجح في ذلك كلّهُ أيّما نجاح.

على الرغم من ذلك كلّهُ، قد تجد بعض الحاقدين الذين ينظرون إلى الواقع من نافذة حقدهم الأعْمى، يتحاملون على الخواجة نصير الدين الطوسي، وينعتونه بالكفر ومناصرة أهل الشرك والإلحاد، وينسبون إليه تهمة التآمر على الخليفة العبّاسيّ، وأنّه أشار على هولاكو باحتلال بغداد وقتل القضاة والفقهاء والمحدّثين، ويتغاضون عن الأمور الثابتة في التاريخ من رسائل ومكاتبات بين هولاكو وبعض أركان الدولة الذين ثبت تأمرهم، ويغضّون النظر عن العوامل والظروف التي أدّت إلى سقوط بغداد، والتي يتحمّل الخليفة نفسه مسؤوليّة أكثرها.

ولقد أقرّ المؤرّخ الشهير ابن كثير الدمشقيّ في «البداية والنهاية» بأنّ هذه التهم لا دليل عليها، وأنّها لا تصدر عن عاقل ولا فاضل.

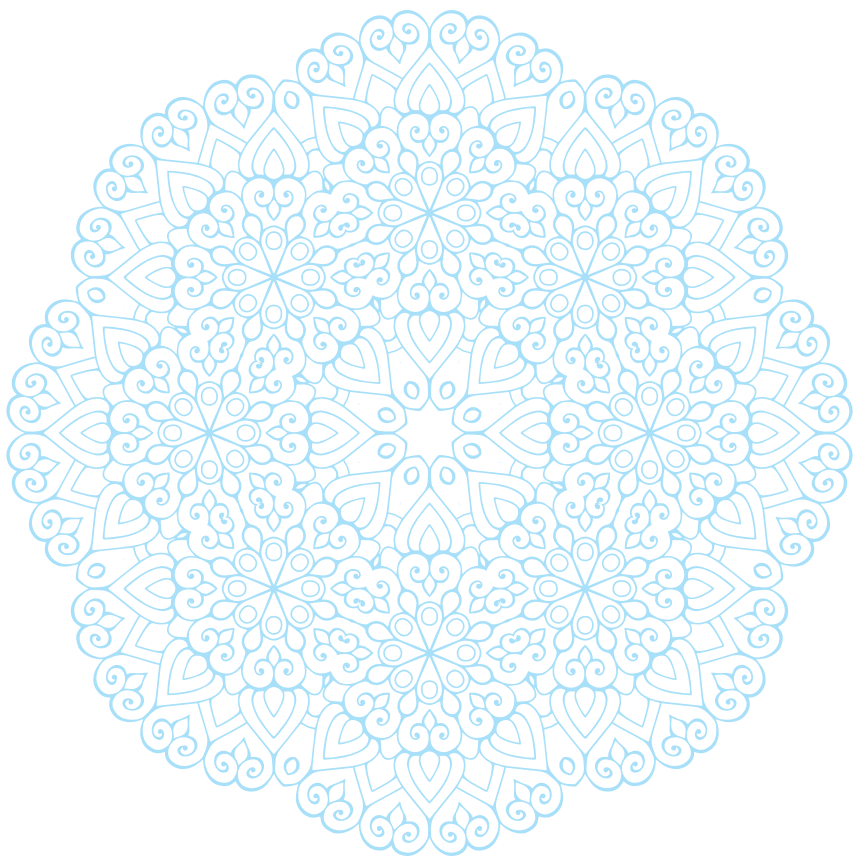
وعلى أيّ حال، فليست هذه هي المرّة الأولى التي يلقي فيها هؤلاء

وأمثالهم الكلام على عواهنه، ويكيلون فيها التَّهم دون دليل ولا وازع من دين.

ومهما يكن، فإنَّ آثار المحقِّق الطوسي المطبوعة تُعتبر اليوم من المصادر المهمّة جدّاً في دراسة الفلسفة الإسلاميّة، وعلم الكلام، والفلك والرياضيّات، وغير ذلك، وهي تكشف عن براعة قلّ نظيرها، ودقّة متناهيّة، وأفق علميّ واسع، شاركت في دفع حركة العلم والتحقيق إلى الأمام، وأثّرت الفكر الإسلامي والعلميّ، وهذه فضيلة لا يمكن إنكارها ولا التعامي عنها، إلّا من قِبَل الذين لا يزالون يعتبرون الفلسفة إلحاداً، والبحث العلميّ كفرّاً، والتشيع لأهل بيت النبي ﷺ منكرّاً.

الفصل الخامس

السيد محمد صاحب المدارك



تمهيد⁽¹⁾

تزدان المكتبة الفقهية عند الشيعة الإمامية بكتاب اسمه «مدارك الأحكام» الذي يُعدّ من الكتب الاستدلالية المهمة، ومن الشروح المتميزة على كتاب «شرائع الإسلام». ومصنّف هذا الكتاب علم من أعلام الإسلام، وشمس من شموسه، أشرقت من جبل عامل، هذا الجبل الذي جاد على الأمة بالعديد من الرموز العلمية الكبرى، الذين حفظوا الدين وأثروا المكتبة الإسلامية بمصنّفاتهم وكتبهم.

نسبه وعائلته

السيد السند شمس الدين محمد بن عليّ بن الحسين بن أبي الحسن الموسويّ العامليّ الجبعيّ، الشهير بـ«صاحب المدارك».

(1) راجع ترجمته مفصلة حيث ذكرت كلّ هذه التفاصيل في: السيد محمد العاملي، مدارك الأحكام، مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث - مشهد المقدّسة، مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث - قم المشرفة، 1410هـ، ط1، ج1، ص28-35 (مقدّمة التحقيق)؛ الحرّ العامليّ، الشيخ محمد بن الحسن، أمل الأمل، مكتبة الأندلس، بغداد، لا.ت، لا.ط، ج1، ص16؛ السيد الأمين، أعيان الشيعة، مصدر سابق، ج10، ص6؛ آقا بزرگ الطهراني، الشيخ آقا بزرگ، الذريعة إلى تصانيف الشيعة، دار الأضواء، لبنان - بيروت، 1403هـ - 1983م، ط3، ج13، ص337.

الموسوي: نسبة إلى الإمام موسى الكاظم، سابع أئمة أهل البيت عليه السلام.

والعاملي: نسبة إلى جبل عامل في الجنوب اللبناني.

والجبعي: نسبة إلى موطنه وقريته جُبُع أو جباع، التي وُلد وعاش ودُفِن فيها، وهي من القرى المهمّة والكبيرة في جبل عامل تقع في إقليم التفّاح (المنطقة التي شهدت عملاً جهادياً واسعاً وعظيماً ضدّ العدو الصهيونيّ الغاصب). وهذه القرية بالذات لها تاريخ حافل بالعلم والعلماء، وقد ذكر السيّد محسن الأمين في كتاب «خطط جبل عامل» أسماء ما يزيد على ثلاثين علماً من أعلام العلم من أبناء هذه القرية، ومن أبرزهم وأشهرهم الشهيد الثاني صاحب «الروضة البهيّة في شرح اللمعة الدمشقيّة»، و«مسالك الأفهام في شرح شرائع الإسلام»، والشيخ بهاء الدين العامليّ المعروف بالشيخ البهائيّ.

والده: السيّد عليّ الموسويّ العامليّ. كان من العلماء الفضلاء، وهو من تلامذة الشهيد الثاني الذين حظوا عنده بعناية خاصّة، وكان الشهيد الثاني صهره متزوجاً من أخته، وقد زوّجه ابنته من زوجته الأخرى، فوالدة السيّد محمّد -إذاً- كريمة الشهيد الثاني قدس سرّه، وهو حفيده.

والجدير بالذكر، أنّ الشهيد الثاني كان له ثلاث زوجات:

الأولى: جدّة السيّد محمّد (صاحب المدارك) أمّ أمّه.

والثانية: عمّة السيّد محمّد (صاحب المدارك) أخت أبيه.

والثالثة: والدّة الشّيخ حسن ابن الشّهيد الثّاني الذي يأتي ذكره، وهو صاحب كتاب «معالم الأصول». وهذه الثّالثة تزوّجها السيّد عليّ والد صاحب المدارك بعد استشهاد الشّهيد الثّاني. وله منها ولد هو أخو الشّيخ حسن (صاحب المعالم) من أمّه، وأخو السيّد محمّد (صاحب المدارك) من أبيه.

وقد ظهر أنّ عائلته من طرف أبيه ومن طرف أمّه تتمتّع بمجد علميّ لا يضاهي.

ولادته ووفاته

وُلد عام 946هـ، وتوفيّ عام 1009هـ في بلدة جبّاع كما تقدّم. والمؤسّس أنّ قبور العلماء الأعاضم في هذه القرية إمّا ضائعة أو مهملة ليس فيها أدنى اهتمام. ولعلّ أغلب قرى جبل عامل على هذا المنوال، وقد شكى السيّد محسن الأمين من هذه الظاهرة في مواضع عدّة من كتبه.

أساتذته وتحصيلاته العلميّة

قبل التعرّض لأساتذته، يجدر الإشارة إلى أنّ السيّد محمّد العامليّ، وخاله الشّيخ حسن، زميلاً درس في مراحل التحصيل كافيّة، وسافرا إلى النجف الأشرف معاً، ورجعا معاً.

وقد وصفهما حفيد الشّيخ حسن في كتاب «الدر المنثور» بأنّهما



كفرسيّ رهان ورضيحيّ لبنان، وكانا متقاربين في السنّ. وقلّما يحصل
لزميلين من الترابط والترافق ما حصل لهما.

فقد ذكر أنّ كلّاً منهما كان يحضر درس الآخر، ويتذاكر معه،
وإذا كتب شيئاً أرسل إليه ليراجعه ثمّ يلتقيان للمباحثة حوله.

وإذا سبق أحدهما إلى المسجد صلّى، وائتمّ الآخر به؛ لذلك فإنّ
الحديث عن أحدهما يجزّ حتماً للحديث عن الآخر.

لم يظهر لي إذا كان السيّد محمّد قد أخذ في بدايات دراسته عن
الشهيد الثاني مباشرة أم لا، ولكن بالنسبة إلى خاله الشيخ حسن،
فإنّه -حسب الظاهر- لم يحصل ذلك؛ لأنّه استشهد وولده الشيخ
حسن لم يتمّ السابعة من عمره.

1- فاستاذهما الأوّل هو السيّد عليّ، والد السيّد محمّد صاحب
المدارك. وزوج والدته الشيخ حسن بعد ذلك. وكان السيّد عليّ
من تلامذة الشهيد الثاني.

2- ثمّ تولى السيّد عليّ الصائغ تعليمهما العلوم التي استفادها من
الشهيد الثاني قدس سرّه من معقول ومنقول وفروع وأصول وعربيّة
ورياضيّة.

3- ولما انتقل السيّد عليّ الصايغ إلى جوار ربّه، ورد الفاضل الكامل
ملاً عبد الله اليزديّ إلى تلك البلاد، فقرأ عليه كلّ منهما المنطق
والمطوّل والحواشي التي كتبت عليها. وكان ملاً عبد الله في حينه
يكتب حاشيته المشهورة والمتداولة في الحوزات حتّى الآن،
فقرأ عليه متن تهذيب المنطق والحاشية.

وقيل إنّ ملا عبد الله كان يقرأ عليهما الفقه والحديث في الوقت نفسه.

وهذا إذا صحّ، فهو يكشف عن المكانة التي كانا يحتلانها عند أساتذتهما، وعن الروحية العالية والأخلاق الرفيعة عندهم جميعاً، حينما يرضى كلّ منهم بالتلمذ عند تلميذه في جوانب علمية أخرى يرى أنّه بحاجة إليها وتلميذه أكمل منه فيها.

4- بعد ذلك سافرا معاً إلى العراق، وتتلّمذا هناك على المحقّق المقدّس ملاّ أحمد الأردبيليّ الذي هو من تلامذة الشهيد الثاني أيضاً.

فقرأ عليه كتباً عدّة في الأصول والمنطق والكلام وغيرها، مثل «شرح المختصر» للعضديّ، و«شرح الشمسية» و«شرح المطالع»، وكان لهما طريقة خاصّة في القراءة عليه، اختصاراً للوقت لكيلا تطول إقامتهما هناك.

وكان المقدّس الأردبيليّ في ذلك الوقت يكتب شرحه على الإرشاد، فيعطيها الكرايس التي يكتبها، ويقول: انظروا في عبارته، وأصلحوا منها ما شئتم، فإنّي أعلم أنّ بعض عباراته غير فصيح.

5- وقد اشتركا أيضاً في القراءة والرواية عن الشيخ حسين بن عبد الصمد، والد الشيخ الهائيّ، وهو من تلامذة الشهيد الثاني المقرّبين عنده، والملازمين له أيضاً.

6- وقرأ على الشيخ أحمد بن حسن النباطيّ العامليّ بعض الوقت. هؤلاء أهمّ الأساتذة الذين تتلمذا عليهم، وتلقّيا علومهما منهم.

مقامه وموقعيته العلميّة

كان وخاله الشيخ حسن موضع ثقة أساتذتهما وخاصة المقدّس الأردبيليّ، فإنّه يُنقل أنّ بعض تلامذة المقدّس قدس سرّه كان يهزأ من الطريقة التي يقرآن فيها على أساتذتهما لما فيها من عجلة وطيّ صفحات دون توقّف وشرح، فلمّا عرف ذلك منهم تألّم كثيراً، وقال لهم عن قريب يتوجّهان إلى بلادهما، وتأتيكم مصنفاتهما وأنتم تقرؤون في شرح المختصر. وهكذا حصل، فقد وصلت بعض مصنفاتهما قبل وفاة المقدّس الأردبيليّ إلى النجف الأشرف، وتصنيفاتهما حتّى الآن تُعدّ من مفاخر المكتبة الإسلاميّة عند الإماميّة.

وعلى الرغم من قصر الفترة التي قرأ فيها على المقدّس الأردبيليّ، إلّا أنّها تركت أثرها البارز على فكرهما وأسلوبهما في الاستدلال والاستنباط، حتّى عدّا من مدرسته -قدّس الله نفسه الزكيّة-. ولا شكّ في أنّ مدرسة الشهيد الثاني أيضاً قد تركت بصماتها على فكرهما، ويظهر ذلك جليّاً إذا لاحظنا أنّ أغلب أساتذتهما كانوا ممّن تربّوا في مدرسته قدس سرّه.

السيد محمّد العامليّ أحد الشخصيّات العلميّة ذات الفكر الثاقب، والرأي السديد، التي زوّدت الحوزة العلميّة بالبحوث المبتكرة؛ ولذلك فقد أثنى عليه كثير من أعلام عصره وممّن جاء بعده: قال عنه الحرّ العامليّ: «كان عالماً، فاضلاً، متبحّراً، ماهراً، محقّقاً، مدقّقاً، زاهداً، عابداً، ورعاً، فقيهاً، محدّثاً، كاملاً، جامعاً للفنون والعلوم، جليل القدر، عظيم المنزلة»⁽¹⁾.

(1) الحرّ العامليّ، أمل الأمل، مصدر سابق، ج 1، ص 167.

وقال أيضاً: «لقد أحسن وأجاد في قلة التصنيف وكثرة التحقيق، وردّ أكثر الأشياء المشهورة بين المتأخّرين في الأصول والفقه، كما فعله خاله الشيخ حسن»⁽¹⁾.

ووصفه صاحب المقام في أوّل شرحه على المدارك بأنّه أسوة المحقّقين، وقدوة المدقّقين، ولسان المتأخّرين.

وقال المحقّق البحرانيّ في لؤلؤة البحرين: «أمّا السيّد السند، السيّد محمّد وخاله المحقّق المدقّق الشيخ حسن، ففضلهما أشهر من أن يُذكر».

وقد أثنى عليه كلّ من ترجم له، كالأفنديّ في «رياض العلماء»، والسيّد الخونساريّ في «روضات الجنّات»، والسيّد الأمين في «أعيان الشيعة». يطول المقام بذكر عباراتهم، فمن أراد فليراجع.

أبرز تلامذته ومن تربى في مدرسته

1- أخوه من أبيه السيّد نور الدين عليّ (الثاني)، وهو أخو الشيخ حسن صاحب المعالم لأُمّه. وكان من أعيان الطائفة ومن عباقرتها، جمع بين العلم والأدب، نقل صاحب الغدير من شعره ما يدلّ على علوّ محلّه.

2- الشيخ محمّد بن الحسن بن زين الدين العامليّ ابن (صاحب المعالم) الذي رثاه بقصيدة رائعة يقول في مطلعها:

(1) الحرّ العامليّ، أمل الآمل، مصدر سابق، ج 1، ص 168.



صحبتُ الشجى ما دمتُ في العمر باقياً
 وطلّقتُ أيّامَ الهنا والليالي
 وعنيّ تجافى صفو عيشي كما غدا
 يناظر منّي ناظر السحب باكياً
 وقد قلّ عندي كلّ ما كنت واجداً
 بفقد الذي أشجى العدى والموالي
 فتى زانه في الدهر فضل وسؤدد
 إلى أن غدا فوق السماكين راقياً
 هو السيّد المولي الذي تمّ بדרه
 فأضحى إلى نهج الكرامات هادياً⁽¹⁾
 3- الشيخ حسن بن عليّ بن أحمد العامليّ الحانيّ، وله إجازة منه.
 وقد رثى أستاذه بقصيدة، يقول فيها:
 هو الحزن فابك الدار ما نظم الشعرا
 أديبٌ وما طُرف الدجى رمق الشعري
 أنوح وأبكي لا أفيق، فتارة
 أهيم بهم وجداً وأخرى بهم سكرا
 وإني لكالخنساء قد طال نوحها
 وقد عدمت من دون أمثالها صخرا

فقل لغراب البين يفعل ما يشا
فمن بعد شيخي لا أخاف له غدرا
شريف له عين الكمال مريضة
علاها دخان العين فهي به عبرى⁽¹⁾

- 4- السيد إسماعيل بن عليّ العامليّ الكفرحونيّ.
 - 5- الشيخ عبد السلام بن محمّد بن الحرّ العامليّ، وأخوه الشيخ عليّ بن محمّد الحرّ العامليّ، جدّ صاحب الوسائل، وأخوهما الشيخ محمّد بن محمّد.
 - 6- الشيخ نجيب الدين عليّ بن محمّد بن مكّيّ العامليّ، له قصيدة في رثاء أستاذه السيّد محمّد.
 - 7- الشيخ عبد اللطيف بن عليّ بن أحمد بن أبي جامع العامليّ.
 - 8- الشيخ عليّ بن أحمد بن موسى العامليّ النباطيّ.
- هذه ثلّة من تلامذته وتلامذة خاله المحقّق الشيخ حسن، فإنّه يندر أن يتلمذ على أحدهما تلميذ إلا وتلمذ على الآخر.

خصائصاته الفرديّة والاجتماعيّة

تميّز بالورع والتقوى، والبُعد عن الدنيا الفانية. ذكره صاحب الأنوار النعمانية فقال: «حدثني أوثق مشايخي أنّ السيّد الجليل صاحب المدارك، والشيخ المحقّق صاحب المعالم (رحمهما الله)،

(1) الحرّ العامليّ، أمل الأمل، مصدر سابق، ج 1، ص 64.



قد تركا زيارة المشهد الرضويّ على ساكنه أفضل الصلاة، خوفاً من أن يكلفهما الشاه عبّاس الصفويّ بالدخول عليه، مع أنّه كان من أعدل سلاطين الشيعة، فبقيا في النجف الأشرف، ولم يأتيا إلى إيران احترازاً من ذلك»⁽¹⁾.

ولكنّ الرجوع إلى الوضع السياسيّ الذي كان يسود المنطقة في تلك الحقبة، ربّما يكشف لنا عن بُعد آخر لهذا الأمر، فإنّ المنطقة في تلك الفترة كانت تحت سيطرة الدولة العثمانية، وكانت الدولة الصفويّة من الدّ أعدائها، والصراع الحادّ كان ينعكس على جبل عامل باعتبار أنّه يسكنه غالبية شيعيّة، فتوجّه الضغط إلى هذه المنطقة، وهو أحد عوامل الهجرة العامليّة الكبيرة، ففي بعض الإحصاءات أنّ ثلثي علماء جبل عامل هاجروا إلى مناطق عديدة، كان السهم الأكبر من حصّة إيران، نظراً إلى الإغراءات التي شجّعت على اختيار هذا الموطن من مواطن الهجرة دون غيره، وهي التمكن من نشر التشيع في هذه البلاد التي بات يحكمها حكّام شيعة.

والذين صمدوا في جبل عامل في تلك الفترة كانوا قلة، عاشوا فترة حرجة، خاصّة بالنسبة إلى السيّد محمّد والمحقّق الشيخ حسن باعتبار أنّهما من عائلة الشهيد الثاني الذي ذهب ضحيّة هذا الصراع المذهبيّ.

فالذي أتصّوره أنّ سفر السيّد محمّد والشيخ حسن إلى إيران، واتّصالهما بالشاه عبّاس الصفويّ، سيؤدّي إلى توجّه أنظار السلطة العثمانية نحوهما؛ الأمر الذي يشكّل خطراً مباشراً على حياتهما،

(1) نقله: السيّد الأمين، أعيان الشيعة، مصدر سابق، ج 10، ص 7.

وربما يمنعهما من العودة إلى البلاد التي كانت بحاجة إلى أمثالهما بعد الهجرة الكبيرة للعلماء.

فما ذكره صاحب الأنوار النعمانية صحيح، إلا أنه في تصوّر ليس حباً للابتعاد عن الحُكّام بقدر ما هو ضرورة ناتجة من الوضع الراهن آنذاك.

عائلته وأولاده

خلف من الأولاد الذين تابعوا مسيرته العلميّة ونهجه:



- 1- السيّد نجم الدين، الذي حصل على إجازة كبيرة من الشيخ حسن خال أبيه.
- 2- السيّد حسين، الذي سافر إلى خراسان، وصار شيخ الإسلام فيها⁽¹⁾.

مؤلفاته

ترك أثراً قيّمة نافعة، تجسّد فضله، وتحكي مقامه العلميّ:

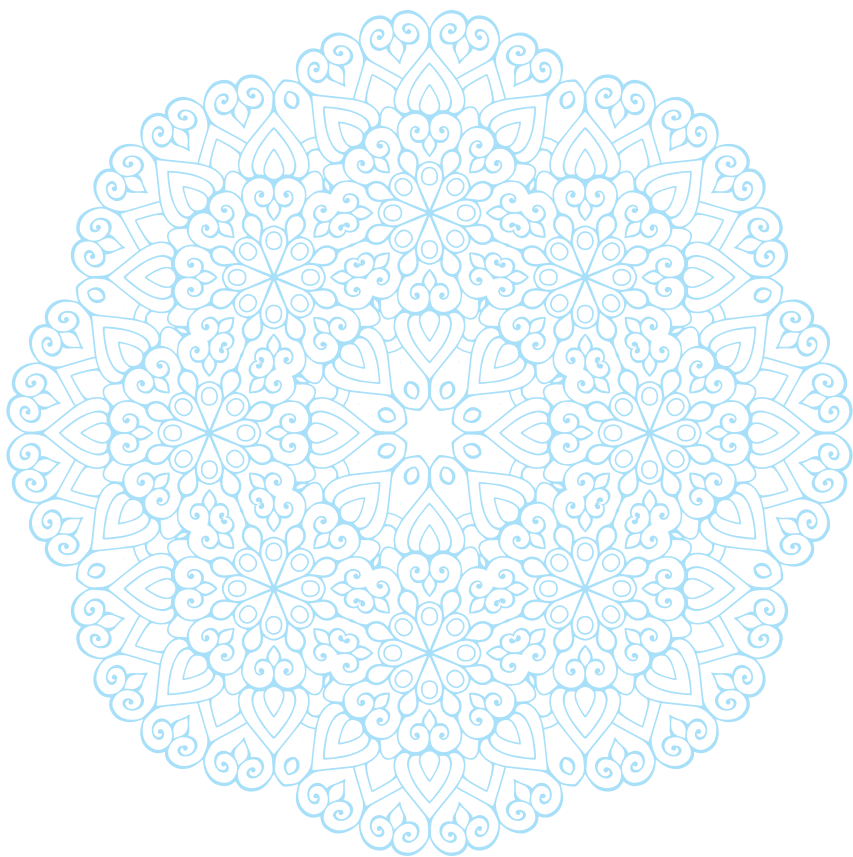
- 1- مدارك الأحكام في شرح شرائع الإسلام، فصلّ فيه ما أوجزه جدّه الشهيد الثاني في مسالك الأفهام؛ ولذا اقتصر فيه على العبادات إلى آخر الحجّ.
- 2- حاشية على الاستبصار.

(1) آقا بزرگ الطهراني، الذريعة إلى تصانيف الشيعة، مصدر سابق، ج 13، ص 337.

- 
- 
- 3- حاشية على تهذيب الأحكام.
4- حاشية على ألفية الشهيد.
5- نهاية المرام في شرح مختصر شرائع الإسلام (المختصر النافع)
من النكاح الى آخر النذر.
6- حواشي على خلاصة العلامة في الرجال.
7- حاشية على الروضة البهية لجده الشهيد الثاني.

الفصل السادس

بهاء الدين العاملي: أعجوبة الزمان



تمهيد⁽¹⁾

يُعدّ بهاء الدين العامليّ (الذي اشتهر باسم الشيخ الهائيّ) أعجوبة الزمان، وعلم الأعلام وشيخ الإسلام، صاحب الشهرة الواسعة، والمكانة الراسخة عند أهل الدين والدنيا. وهو عالم فاضل لامع، حاله في الفقه، والعلم، والفضل، والتحقيق، والتدقيق، وجلالة القدر، وعظم الشأن، وحسن التصنيف، وجمع المحاسن، والحكمة والتدبير، أظهر من أن يُذكر، وأعرف من أن يُعرف، فهو عديم النظير في زمانه في مختلف العلوم والفنون.

(1) راجع ترجمته مفصلة: الشيخ الهائيّ العامليّ، محمّد بن الحسين، زبدة الأصول، تحقيق: فارس حسون كريم، مرصاد، 1423 - 1381 ش، ط1، ص3-16 (مقدمة التحقيق)؛ الحر العاملي، أمل الأمل، مصدر سابق، ج1، ص155: السيد الأمين، أعيان الشيعة، مصدر سابق، ج9، ص234: الطبرسي، الميرزا حسين النوري، خاتمة المستدرک، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، إيران - قم، 1415 هـ، ط1، ج2، ص228: الكلباسي، محمد بن محمد ابراهيم، الرسائل الرجالية، تحقيق: محمد حسين الدرايحي، دار الحديث، 1422 - 1380 ش، ط1، ج2، ص467: السيد حسن الصدر، تكملة أمل الأمل، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، مكتبة آية الله المرعشي، إيران - قم، 1406، لا ط، ص343.

نسبه

الشيخ بهاء الدين هو محمد بن الحسين بن عبد الصمد الحارثي الهمداني الجبعي العاملي.

- فالحارثي الهمداني: نسبة إلى جدّه الأعلى «الحارث الهمداني»، الذي كان من خواصّ أمير المؤمنين عليه السلام من بني همدان، القبيلة المعروفة بالولاء.
 - العاملي: نسبة إلى جبل عامل في جنوب لبنان.
 - الجبعي: نسبة إلى بلدته «جُبَع» التي هي موطن آبائه، أو «جُبَاع»، وهي من أكبر قرى إقليم التفّاح في شمال جبل عامل. وقد يقال لها «جبع الحلاوة» لتمييزها عن «جُبَع الشوف» في جبل لبنان و«جبع بنيامين» في فلسطين.
- و«جُبَع» هذه بلد العلماء والزهاد والأبدال، قال عنها بعض المصنّفين: «لا أعرف في إقليم التفّاح بلداً في العلم والعلماء غير جباع، ولا في بلاد عاملة كلّها الجامعيّة التي فيها سوى ما كان في بلدة جزين».

عدّ السيّد محسن الأمين أكثر من ثلاثين عالماً كبيراً ممّن خرجوا منها.

ولادته

ولد الشيخ الهائي العاملي في «بعلبك»، عندما كان والده يقيم هناك برفقة أستاذه الشهيد الثاني، فقد تتلمذ والده على الشهيد



الثاني يوم كان في موطنه الأصلي «جُبع»، وانتقل معه إلى بعلبك، وهناك وُلد «بهاء الدين» عام 953هـ (قيل في محرم وقيل في ذي الحجة). وقد اشتبه بعضهم، فذكر أنه وُلد في قزوين، والظاهر أنه خلط بينه وبين أخيه عبد الصمد الذي وُلد هناك.

عائلته

أبوه الشيخ حسين، وجدّه الشيخ عبد الصمد، وأبو جدّه الشيخ محمّد، كلّهم من أهل العلم والفضل. فوالده كان عالماً متبحّراً، جليل القدر، وعظيم الشأن، وجدّه الشيخ عبد الصمد من نوابغ الطائفة وعلمائها البارعين، وأعمامه الشيخ نور الدين، والشيخ محمّد، والشيخ زين العابدين، من العلماء الثقات. فنشأته كانت في محيط من العلم والتقى والورع، فلا غرابة أن ينمو خير نموّ بين هذه الخمائل الوارفة والعلماء الأعلام؛ ممّا غرس فيه حبّ المعرفة، مضافاً إلى العناية الخاصّة التي أولاه بها والده، كما يظهر ذلك من خلال كتاباته وأشعاره، وكما يظهر جلياً من خلال تتلمذه عليه في مجموعة من العلوم العقلية والنقلية. وثقة والده به كانت كبيرة، حيث أجازته على ظهر إجازة الشهيد الثاني قدس سرّه.

وقد انتقل به والده إلى إيران وهو صغير السنّ، لم يتجاوز الثالثة عشر من العمر، وسكن فترة في قزوين، حيث انتقل أبوه منها إلى هراة.

هذه هي طفولة الشيخ بهاء الدين العاملي.

تحصيلاته العلميّة

جمع الشيخ بهاء الدين علوماً عدّة، وبرع في عدد منها؛ ممّا جعله أعجوبة زمانه على حدّ تعبير بعض المؤرّخين، فهو فضلاً عن علوم العربيّة والفقه والأصول التي أخذها من والده، عمل على تحصيل عدد من العلوم: كالعلوم العقليّة، وعلم الهيئة والفلك، والرياضيّات والهندسة، ومع ذلك نجد له باعاً طويلاً في الشعر والأدب.

فحقّ ما قيل عنه إنّه: عديم النظير في زمانه في الفقه، والحديث، والمعاني، والبيان، والرياضيّات، وغيرها. وأخذ من مختلف الفرق والمذاهب.

أساتذته ومرّبّوه

لقد تلقّى الشيخ البهائي العلوم المختلفة عن عدد كبير من الأساتذة خلال رحلاته الكثيرة التي أخذت ردهاً من عمره؛ ممّا يجعل إحصاء أساتذته عملاً شاقّاً. ومن أساتذته:

1 - أستاذه الأوّل كان والده الشيخ حسين، حيث قرأ عليه جملة كافية من العلوم العقليّة والنقليّة، كما جاء في نصّ إجازته له ولأخيه.

2 - وقد قرأ على المولى عبد الله اليزديّ كلّيات القانون. وتلمذ على كلّ من:

3 - الشيخ عبد العالي الكرّكيّ ابن المحقّق الثاني.

- 4 - الشيخ محمد المقدسي الشافعي، الذي وافاه في بعض رحلاته.
- 5 - علي المذهب المدرّس، أخذ عنه العلوم الرياضيّة.
- 6 - الشيخ أحمد الكجائي (مير أحمد)، قرأ عليه في قزوين.
- 7 - النطاسي عماد الدين محمود، قرأ عليه في الطب.
- 8 - القاضي أفضل القايي.
- 9 - الشيخ عمر العُرضي (والد أبي الوفا)، أخذ منه في حلب، وهو لا يعرفه، حيث كان متخفياً.
- 10 - محمد بن أبي الحسن البكري، حضر دروسه في الأزهر، وكان يعظّم الشيخ البهائي.

مقامه العلمي

احتلّ الشيخ البهائي مقاماً سامياً في مختلف ميادين العلم، ونال درجة رفيعة قلماً يُعترف بها لأحد. فهو أحقّ من كلّ حقيق بذكر أخباره، ونشر مزاياه، وإتحاف العالم بفضائله وبدائع، كان أمة مستقلة في الأخذ بأطراف العلوم، والتضلع من دقائق الفنون، وقد بالغ كلّ من عرفه بالثناء عليه، وأطالوا بذكر فضله وعلو مرتبته. ومؤلفاته تشهد لكلّ ما قيل فيه.

ونظراً إلى ما وصل إليه من المنزلة العلميّة، حظي باهتمام دار السلطنة في إصفهان آنذاك، وصار شيخ الإسلام فيها.

وهذا اللقب «شيخ الإسلام» عبارة عن منصب الإفتاء العامّ في الدولة الصفويّة التي عاش الشيخ البهائي في عصرها الأوّل.

أقوال العلماء في حقّه

- مما يشهد بفضله ومكانته ما جرى على ألسنة من ترجم له:
- 1- فهذا الحرّ العامليّ يقول: «إنّ فضائله أكثر من أن تحصر... عديم النظير في زمانه».
 - 2- وهذا السيّد مصطفى التفرّيشيّ في نقد الرجال، يقول عنه: «جليل القدر، عظيم المنزلة، رفيع الشأن، كثير الحفظ، ما رأيت بكثرة علومه ووفور فضله وعلوّ رتبته في كلّ فنون الإسلام كمن له فنّ واحد»⁽¹⁾.
 - 3- أمّا تلميذه السيّد حسين الكركيّ، فيقول: «كان أفضل أهل زمانه، بل كان متفرداً بمعرفة بعض العلوم التي لم يحُْم حولها أهل زمانه ولا قبله على ما أظن»⁽²⁾.
 - 4- السيّد عليّ خان في السلافة -بعد المدح والإطراء- قال: «هو علامة البشر، ومجدّد دين الأئمّة على رأس القرن الحاديّ عشر.. ما من فنّ إلّا وله فيه القدح المعلّى، والمورد العذب المحلّى»⁽³⁾. هذا بعض ما قيل فيه وما أكثر ما قيل.

تلامذته ومن تربّى في مدرسته

أخذ عن الشيخ المهابيّ لفيف كبير من التلامذة يُعدّون بالأمثات، بعضهم حضروا حلقات درسه، وبعضهم سعدوا بعلومه من خلال

(1) راجع: الكلباسيّ، الرسائل الرجاليّة، مصدر سابق، ج 2، ص 467.

(2) الميرزا النوريّ، خاتمة المستدرک، مصدر سابق، ج 2، ص 228.

(3) الشيخ القنّيّ، الكنى والألقاب، مصدر سابق، ج 2، ص 100.

التقاءه في رحلاته في المدن والعواصم التي جابها وأقام فيها رداً طويلاً من حياته.

يرجع سبب كثرة تلامذته إلى تنوع قنوات معرفته، فمنهم من أخذ منه الفلسفة وعلم الكلام، ومنهم من أخذ منه الفقه والأصول، ومنهم من أخذ منه الحديث ودرايته أو التفسير وعلومه، ومنهم من تلمذ عليه في الأدب والبلاغة والنحو واللغة. وقد لمع عدد من تلامذته وعدوا في النابغين والمؤلفين من أبرزهم:

- 1- أخوه الشيخ عبد الصمد، الذي كتب له (الصمدية في النحو).
 - 2- السيد حسين بن حيدر الكركي، الذي رافقه زهاء 40 سنة.
 - 3- السيد محمد تقي المجلسي الكبير صاحب «ملاذ الأخيار».
 - 4- الفيض الكاشاني صاحب «الوافي».
 - 5- الشيخ القهبائي صاحب «مجمع الرجال».
 - 6- ميرزا قاضي اليزدي صاحب «التحفة الرضوية في شرح الصحيفة السجادية».
 - 7- سلطان العلماء (صاحب الحاشية المشهورة على اللمعة).
- وغير هؤلاء، ذكر الأميني في الغدير أسماء 97 تلميذاً ممن أخذ عنه وروى عنه.

خصائصه الأخلاقية والفردية والاجتماعية

كان على جانب عظيم من رحابة الصدر وسعة الأفق، لم يتحرج من أخذ الحكمة أينما وجدت؛ ولذا نراه على عظيم منزلته وجلالته



قدره عندما مرّ بحلب في إحدى رحلاته، طرق باب الشيخ عمر العُرضيّ للإفادة من درسه دون أن يُعلمه باسمه مدّة من الزمن، وكان يصبر على شتائه عندما يحاول مناظرته، إلى أن اكتشف الأستاذ أنّ تلميذه هو الشيخ بهاء الدين، فبالغ في احترامه وتقديره.

على الرغم من الرياسة التي وصلت إليه، لم يترك رحمه الله زهده وتواضعه، بل عرف عنه أنّه واطب على بساطة العيش، وأثر حياة الفقراء على الغنى والترّف، فلم تحجبه الرياسة عن النزول إلى الأسواق، وميادين المدينة، والحضور الدائم بين عامة الناس. وقال عنه الشبيبي: «خُلِقَ هذا الإمام مطبوعاً على حبّ الحرّية والتخفّف، ومجافاة التصنّع والتكلف، مشغولاً بمظاهر البساطة في الحياة، ثائراً على المتصنّعين والمتكلّفين، وما أكثرهم في زمانه ومكانه!».«

- وقد رغب في أواسط عمره بعد أن قضى زمناً في دار السلطة ورئاسة المِلّة في الفقر والسيّاحة، وأحبّ الابتعاد عن أجواء الزعامة، فساح في البلاد زهاء ثلاثين سنة بزيّ زاهد فيه من يراه، ويظنّه أنّه من الدراويش أو المتصوّفة. وفي هذه الرحلات التقى كثيراً من أهل العلم والمنزلة، الذين زهدوا فيه حتّى سمعوا منه، فهالهم ما عنده من غزارة علم ودقّة فهم.

ونقل عنه أنّه عندما كان في إصفهان مقرّباً من السلطان، كان يتحسّر على العيش في موطنه الأصليّ، وعلى بساطة العيش هناك، ويتبرّم بمظاهر الترف والرئاسة في إصفهان التي كانت سبباً للحسد والضغينة من قبل الآخرين.

ومن خصائصه المهمّة، أنّه كان يتعامل مع كلّ فئة وفريق حتّى يظنّوه على مذهبهم، فالمتصوّفة يدّعون أنّه منهم، حتّى ذكر بعض العامّة أنّه ليس بشييعي، ولكنّه يتّقي من الشاه عبّاس الصفويّ في إظهار تشييعه، وهذا يكشف عن رحابة صدر في التعاطي مع الناس من مختلف المذاهب والفرق.

ولأجل هذا نجح في عمله على توحيد الآراء، وجمع الشتات، ورأب الصدع؛ ولذا عوّل السلاطين والأمراء على آرائه في الإصلاح، وحسم مادّة النزاع الداخليّ بالوسائل السلميّة على قدر الإمكان، وفي كثير من الأحيان.

عائلته وأولاده

لم يظهر من خلال ما تُرجم له أنّه قد خلّف ذريّة، بل استدلّ بعضهم على أنّه لم ينجب، من خلال رحلاته الكثيرة والطويلة، فلا يُعقل أن يكون له عائلة وأولاد فيغيب عنهم هذه المدّة الطويلة.

وإن كان هناك مقولات منتشرة بين الناس لا يعلم لها أصل تفيد أنّ أسرة آل مروّة في لبنان تُنسب إليه.

عصره السياسيّ

وُلد الشيخ البهائيّ في العصر الأوّل من عصور الدولة الصفويّة، وكان النزاع على أشدّه بين السلطان سليم العثمانيّ والشاه عبّاس

الصفويّ الكبير، انعكس هذا النزاع على الساحة في لبنان وسورية (الشام وجبل عامل)، وكان هذا عاملاً مهماً في هجرة العلماء من بلاد الشام وجبل عامل إلى إيران.

وقد أشرنا إلى أنّ والد الشيخ المهيّئ كان ملازماً للشهيد الثاني قدس سرّه، وبعد استشهاد الأخير، اضطرّ الشيخ حسين والد الشيخ المهيّئ إلى الفرار إلى إيران، وكانت حاضرة الدولة في حينها قزوین، فسكن فيها، وتولّى الزعامة الدينيّة، ثمّ تركها إلى هراة، وانتقل الشيخ المهيّئ بعد ذلك إلى أصفهان عندما انتقلت عاصمة الدولة إليها.

هذه الهجرة كانت ذات هدفين:

الأول: الفرار من الظلم الذي كان يمارس ضدّ علماء الشيعة آنذاك في بلاد الشام، والالتجاء إلى دار الأمان. وقد عبّر عن ذلك الشيخ حسين في مقدمة كتاب الدراية قال: «وممّا حثّي على كتابة هذه الرسالة بعد هربي من أهل الطغيان والنفاق...»⁽¹⁾.

الثاني: حاجة الدولة الصفويّة إلى علماء جبل عامل وغيرهم للإرشاد والتوجيه والتدريس.

ومن أجل هذا نجد أنّه عندما مرّ الشيخ المهيّئ بدمشق أو حلب في بعض رحلاته كان يصرّ على التخيّي وكتمان أمره، ويوصي من يتعرّف عليه بكتمان ذلك، وقد نقل أنّه قام بدور من الوساطة

(1) الحارثي العاملي، حسين بن عبد الصمد، وصول الأخبار إلى أصول الأخبار، تحقيق: جعفر المجاهديّ وعطاء الله الرسوليّ، مجمع الذخائر الإسلاميّة، لا.م، لا.ت، ط1، ص201.

عندما حمل رسالة من الشاه عباس الصفويّ إلى السلطان سليم العثمانيّ، لكن لم أتُحقّق من صحّة هذا الأمر.

رحلاته

لقد جاب الشيخ الهائيّ المدن والعواصم في رحلاته المعروفة. ومن المدن التي وصل إليها: هراة، خراسان، إصفهان، بغداد، النجف، كربلاء، البصرة، دمشق، حلب، القدس وغيرها.

مؤلّفاته

للشيخ بهاء الدين العديد من المؤلّفات، كتب كثيراً منها بعد عودته إلى أصفهان من رحلته الطويلة التي أشرنا إليها.

فقد وفق للتأليف في جميع الفنون والعلوم، وقد عدّ في «الغدير» له ما يزيد على سبعة وسبعين كتاباً ورسالة⁽¹⁾. وعدّها الدكتور محمّد التونجيّ ثمانية وثمانين رسالة وكتاب⁽²⁾.

وهي موزّعة على:

- 1- التفسير وعلومه.
- 2- الحديث ودرأيته.
- 3- الفلسفة وعلم الكلام.
- 4- الفقه.
- 5- الأصول.

(1) الأميني، الشيخ عبد الحسين، الغدير في الكتاب والسنة والأدب، دار الكتاب العربي، لبنان - بيروت، 1977م - 1397هـ، ط4، ج11، ص260.
(2) لم نعتزّ عليه.

6- اللغة والنحو والبلاغة.

7- التاريخ.

8- الأدب والشعر.

9- الحساب والهندسة.

10- علم الهيئة والفلك.

11- رسائل في أجوبة المسائل.

12- حواشي كثيرة على كثير من الكتب في مختلف العلوم.

وبعض كتبه كـ«خلاصة الحساب» تُرجم إلى لغات أجنبية عديدة، وعدّ من المصادر المهمة التي تضمّنت إبداعاً لم يسبق لغير المصنّف أن توصّل إليه.

وهذا الكتاب، وغيره من كتبه ومؤلفاته، كانت مورد اهتمام من تلامذته ومن تأخّر عنهم، فقاموا بشرحها والتعليق عليها، وقد ألّفت عشرات الشروح عليها؛ ممّا يدلّ على مدى اهتمام العلماء بمؤلفاته، ومدى التوفيق الذي ناله الشيخ البهائي في هذا المجال.

من أشهر مؤلفاته

1- الكشكول، فيه نوادر وطرائف في شتى الفنون.

2- خلاصة الحساب.

3- الحبل المتين في مزايا القرآن المبين. قال الحرّ العامليّ إنّّه في إحكام أحكام الدين، جمع فيه الأحاديث الصحاح والحسان والمؤثقات.

- 4- زبدة الأصول.
 - 5- رسالة الأسطرلاب.
 - 6- تشرح الأفلاك.
 - 7- المخلاة، وهي أشبه بالكشكول.
 - 8- الأربعون حديثاً.
 - 9- مفتاح الفلاح في عمل اليوم والليلة.
 - 10- الفوائد الصمدية في النحو.
- فضلاً عن العديد من المصنّفات الأخرى.

كان قَدِّسَ نُوْهُ خبيراً في الهندسة، وقد وضع تصاميم عدد من المساجد والروضات، فيقال إنّه صمّم الروضة العلوية في النجف وبعض المساجد في إصفهان، وله مبتكرات عجيبة لم يُعلم سرّها حتّى الآن.

أدبه وشعره

ذكرنا أنّ الشيخ بهاء الدين كان أديباً شاعراً. ويبدو أنّه لم يجمع شعره بنفسه، حيث لم يعدّ من مؤلّفاته ديوانه الشعريّ، وقد ذكر الحرّ العامليّ في «أمل الأمل» أنّ ابنه محمّد رضا الحرّ قد جمع شعره في ديوان لطيف.

وقد تصدّى من المعاصرين الدكتور محمّد التونجيّ (بطلب من المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية في دمشق) لجمع شعر الشيخ البهائيّ، فصار ديواناً طُبِعَ طبعة أنيقة.

ومنه العقول العشر تبغي كمالها
وليس عليها في التعلّم من عار
هُمام لو السبع الطباق تطابقت على
نقض ما يقضيه من حكمه الجاري
ويرثي والده بأبيات منها:

يا ثاويّاً بالمصلّى من قرى هجر
كُسيّت من حلل الرضوان أصفها
أقمت يا بحر بالبحرين فاجتمعت
ثلاثة كنّ أمثالاً وأشباهها
ثلاثة أنت أسداها وأغزرها
جوداً وأعذبها طعماً وأحلاها
هويت من درر العلياء ما حوبا
لكنّ درّك أعلاها وأغلاها
عليك منّي سلام الله ما صدحت
على غصون أراك الدّوح ورّقاها
يا ريح أقصّ قصّة الشوق إليك
إن جئت إلى طوس فبالله عليك
قبّل عني ضريح مولاي وقل
قد مات بهائيك بالشوق إليك

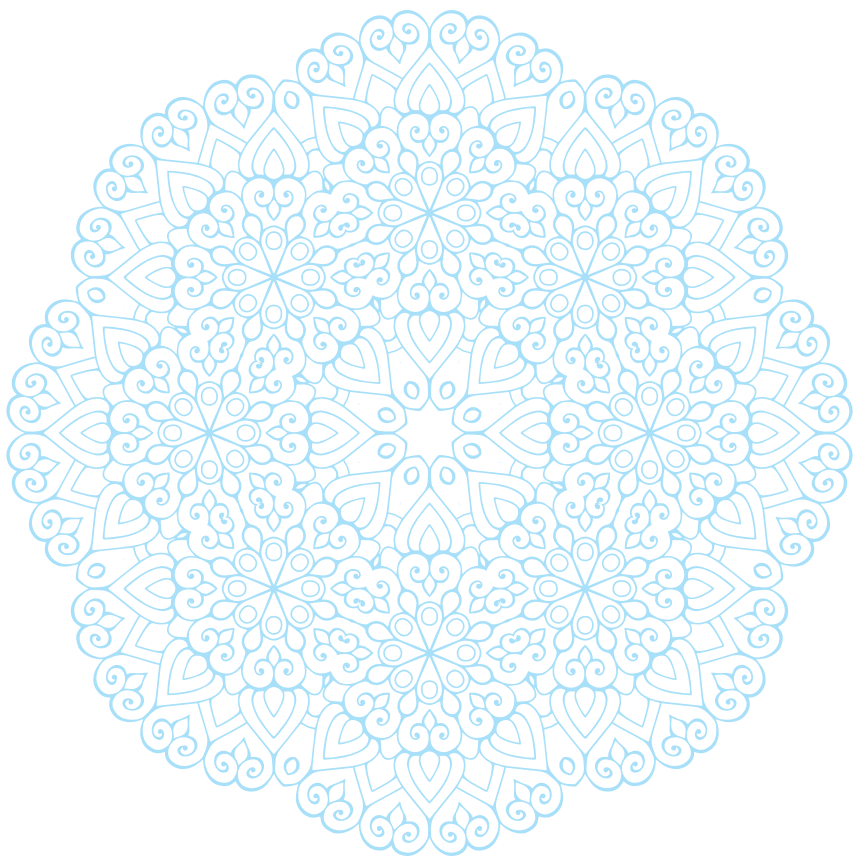
يا ريح إن أتيت أهل النجف
فالثم عني ترابها ثم قف
واذكر خبري لدى غريب نزلوا
واديه وقص قصتي وانصرف
في يثرب والغري والزوراء
في طوس وكربلاء وسامراء
لي أربعة وعشرة وهم ثقتي
في الحشر وهم حصني من أعدائي

وفاته

توفي رحمه الله في إصفهان في 12 شوال سنة 1030 هـ عن
عمر يناهز السابعة والسبعين، ودُفن في المشهد الرضوي في بيته
المجاور للحرم الشريف، وهو الآن جزء من الحرم المطهر، وقد
تشرف بالصلاة عليه الشيخ محمد تقي المجلسي وجمع من الطلبة
والفضلاء، وكثير من الناس يقربون من خمسين ألفاً.

الفصل السابع

الإمام الخميني قدس سره قدوة التأثيرين



منطق الثورة والثقافة الثوريّة في الجمهوريّة الإسلاميّة⁽¹⁾

الثورة الإسلاميّة التي قادها الإمام الخمينيّ قُدِّسَتْ لَهُ هي الوحيدة من بين الحركات التي ظهرت في العصر الحديث في الدول العربيّة والإسلاميّة، التي تستحقّ بجدارة أن يُطلق عليها اسم «ثورة»، فهي تختلف تماماً عن الحركات السياسيّة والانقلابات العسكريّة التي قامت من أجل الاستحواذ على السلطة، أو لدواعٍ قوميّة أو طائفية أو معيشيّة أو ما شابه ذلك.

فالثورة الإسلاميّة الإيرانيّة نهضة عارمة، قامت لتعيد صياغة المنظومة السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة في إيران بشكل جذريّ؛ من منطلقات فكريّة وعقائديّة وفقهيّة مكتملة ومترابطة، وساهمت في صنعها وانتصارها شرائح واسعة جداً من الشعب، وقادها الإمام الخمينيّ وفريق من العلماء الذين نالوا ثقة الشعب؛ لما تمتّعوا به من صفات التقوى والإخلاص والشجاعة وصلابة الموقف، والرؤية الثاقبة.

تميّزت هذه الثورة بأنّها انطلقت من قول الإمام الحسين عَليهِ السَّلَامُ عن رسول الله ﷺ: «مَنْ رَأَى سُلْطَانًا جَائِرًا مُسْتَحِلًّا لِحُرْمِ اللَّهِ،

(1) كتب سماحة الشيخ هذه المقالة بتاريخ 20/4/2008م.

نَاكِثًا لِعَهْدِ اللَّهِ، مُخَالِفًا لِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ، يَعْمَلُ فِي عِبَادِ اللَّهِ
بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، ثُمَّ لَمْ يُغَيِّرْ بِقَوْلٍ وَلَا فِعْلٍ، كَانَ حَقِيقًا عَلَى اللَّهِ
أَنْ يُدْخِلَهُ مَدْخَلَهُ»⁽¹⁾، ومن الاقتداء بسيرة الإمام الحسين عليه السلام
في الجهاد والتضحية.

تميّزت هذه الثورة أيضاً بأنها انتصرت وحققت إنجازاتها
اعتماداً على إرادة الجماهير، وقوة صوتهم الهادر، الذي عبّروا عنه
في تظاهراتهم المليونية في الشوارع ومن فوق أسطح المنازل، عندما
كان يُحال بينهم وبين الشارع، ولم تلجأ إلى العنف، ولم تكن تمتلك
السلح، بل واجهت رصاص السلطة بالصدور العارية، وتعرّضت
للقتل والتنكيل، وقدمت تضحيات كبيرة، حتّى انتصرت وتهاوى
عرش الطاغوت بفعل إرادة الناس وإصرارهم وتضحياتهم.

من الثورة إلى الدولة

وممّا ميّز الثورة الإسلامية الإيرانية من غيرها من الثورات
أنّها انتقلت بسرعة قياسية بعد إسقاط عرش الطاغوت إلى بناء
الدولة، فخلال أشهر قليلة أنجز الدستور الجديد وصوّت الشعب
عليه، وكان صوّت على النظام، وانتُخب الرئيس ومجلس الشورى،
وشكّلت مؤسسات النظام الجديد الواحدة تلو الأخرى، وذلك
على الرغم من التحديات والمؤامرات التي قادتها دول الاستكبار

(1) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري)، مراجعة وتصحيح وضبط
نخبة من العلماء الأجلاء، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، لبنان - بيروت، 1403 هـ -
1983 م، ط 4، ج 4، ص 304.

العالمي، وعلى الرغم من الاغتيالات الفظيعة التي تعرّضت لها، فهذه ميزة بالمقارنة مع الثورة الفرنسيّة التي لم تستقرّ إلا بعد ثمان سنوات من الفوضى والاضطرابات، والثورة الروسيّة التي عانت من المذابح والحرب الأهليّة الدامية لأكثر من خمس سنوات.

أغلب الثورات تتعرّض لمعارضة داخلية تضعها أمام مخاطر الحرب الأهليّة، وتعيق انتقالها إلى البناء، وهو ما اعتاد الصحفيون على التعبير عنه بأنّ الثورة تاكل بعضها، ولكن في إيران اختلفت الحال، فالتحدّي الخارجي من قبل المتضرّرين من قيام الثورة ومن سقوط الشاه كان الأكبر والأخطر، وهو الذي حاول دائماً إثارة الداخل، مستغلاً التعدّد في القوميّات، ومستفيداً من بقايا أجهزة الشاه، إلّا أنّ ذلك على الرغم من خطورته لم يمنع بناء الدولة الحديثة، ولم يلجئ قادة الثورة إلى مصادرة الحرّيّات ولا تأجيل أيّ انتخابات عن موعدها، بل زادهم إصراراً على إنجاز بناء المؤسّسات بسرعة فائقة، وهذا له دلّالته العميقة على صدقيّة المبادئ والقيم والشعارات التي قامت الثورة على أساسها، وله دلّالته على مدى تفاعل الجماهير وتبنّيهم لها.

منطق الثورة ومنطق الدولة

هل من تعارض بين منطق الثورة ومنطق الدولة؟ ولماذا هذا التعارض - إن وجد -؟

يظنّ كثير من الخبراء السياسيين أنّ كلّ ثورة لا بدّ من أنّ تشكل

مساراً يفرض عليها اعتماد رؤية ومنطق وتفكير وأسلوب مغاير تماماً لمسار بناء الدولة الذي يفرض أسلوباً وتفكيراً ومنطقاً ورؤية مناسبة لمشروع الدولة.

ذلك أنّ الثورة مرحلة تستهدف إسقاط النظام وتفكيك المؤسسات، بينما الدولة تقوم بتشكيل النظام وبناء المؤسسات، الثورة تعتمد الخطاب الحماسي والتحريضي، بينما الدولة تمارس الخطاب العقلاني والتوحيدي، الثورة خروج على القانون، بينما الدولة تحافظ على القانون، الثورة تصنع الفوضى والاضطراب وتنتعش فيها، بينما الدولة تعمل على إرساء الأمن والاستقرار الذي تحتاج إليه في عملها. فبين الثورة والدولة تغاير تامّ في المنطق وطريقة التفكير والعمل، على الرغم من أنّ الثورة أيضاً تهدف لاحقاً إلى بناء الدولة الجديدة مكان القديمة، والنظام الجديد مكان القديم، إلّا أنّها مضطرة إلى تغيير منطقها والتخلي عن منطق الثورة عند الانتقال إلى هذه المرحلة.

ولكن ليس كلّ من نجح في صنع الثورة سينجح حتماً في بناء الدولة؛ إذ الانتصار في مرحلة لها خصوصيّتها وأسلوبها وطريقتها وشرائطها لا يستلزم الانتصار في مرحلة أخرى مغايرة في ذلك كلّها. ويرى كثيرون أنّه يمكن تطبيق هذا المنطق على المقاومة والتحرير أيضاً، فرأوا أنّ الانتصار في المقاومة لا يعني حتميّة الانتصار في السياسة، فالمقاومة تضحية وبذل وطهارة وصفاء، بينما السياسة خداع وكذب وأنانيات ومصالح ذاتيّة؛ وعلى أساس ذلك، تُسدى النصائح للمقاومة في لبنان وفلسطين بعدم الخوض في تجربة السياسة والحكم للحفاظ على نقائها وصفائها وصورتها المتألّنة.

أين الخلل في هذا التفكير؟

صحيح أنّ مستلزمات أيّ مرحلة هي خاصّة بها، بدءاً من التخطيط وانتهاءً باختيار أسلوب العمل والأدوات وترتيب الأولويات والخطاب، إلّا أنّ بين الثورة والدولة علاقة تكامل، ويجب أن يشكّلا معاً مساراً واحداً متواصلاً، وإذا كان ثمة خلل في بعض التجارب، فهذا لا يعني وجود تعارض بين المنطقيّين.

فهدف الثورة الإسلاميّة ليس إسقاط النظام فحسب، وإنّما بناء النظام وفق رؤية خاصّة، وليس إلغاء الدولة السابقة، وإنّما بناء دولة العدالة والصلاح مكانها، دولة الاستقلال الحقيقيّ، دولة تخدم الناس وتحفظ مصالحهم. وكأيّ بناء لا بدّ من إزالة القديم من باب المقدّمة ليس إلّا. نعم، إنّ التعصّب لأيّ وسيلة أو طريقة عمل والإصرار على اعتمادها في مختلف الظروف خطأ، فاختلاف آليات العمل من مرحلة إلى أخرى لا يعني أبداً التكرّر لبقية الآليات والوسائل.

الإمام الخميني قدس سره بين مبادئ الثورة ومشروع الدولة

لقد نظر الإمام الخميني إلى الدولة الإسلاميّة منذ كان أستاذاً في الحوزة العلميّة في النجف الأشرف، وشيّد البناء الفقهيّ لولاية الفقيه. وعندما وطئت أقدامه أرض الثورة بعد عودته من منفاه أعلن عن تشكيل الحكومة، ودعا قيادة الثورة إلى بناء المؤسسات، وكان دقيقاً في التقيّد بأحكام الدستور، فهل تخلّى عن منطق الثورة

أم أنّه كان يستكمل مسارها عبر ذلك؟

هنا لا بدّ لنا من الإشارة إلى مبادئ الثورة، لنرى كيف عمل الإمام على حفظها في مشروع الدولة، فأهمّ تلك المبادئ إقامة الدولة المبتنية على الإسلام المحمّديّ الأصيل، وحاكميّة قيم الدين والمنهج الفقهيّ والأخلاقيّ لأهل البيت عليه السلام، وولاية الفقيه في عصر غيبة المعصوم، والاستناد إلى الشعب كحاضن للثورة والدولة ومنشأ قوّتهما، وتحقيق العدالة الاجتماعيّة. هذه المبادئ كفّلها دستور الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة بشكلٍ واضح وصريح، ووضع جملة ضمانات دستوريّة تحول دون الوقوع في دكتاتوريّة الحكم، وانحرافه عن هذه المبادئ، حتّى على مستوى الوليّ القائد فضلاً عمّن دونه من مستويات الإدارة والحكم، وبذلك ضَمِن الإمام الخميني استمرار الثورة كنهج ومبادئ وأهداف في الدولة، فالإسلام اليوم هو الحاكم، وهو المرجعيّة التشريعيّة لكلّ القوانين والتشريعات التي تصدر عن المجلس التشريعيّ (مجلس الشورى)، ويضمن ذلك مجلس صيانة الدستور، كما يضمن هذا المجلس أيضاً وجود الصلاحيّة الفكريّة والعقائديّة والسلوكيّة في المرشّحين للمواقع العليا في الدولة (الرئيس وممثلي الشعب والوزراء)، وقد شكّل مجلس تشخيص مصلحة النظام كمرجعيّة في مجالات الاختلاف في تحديد الضرورات والعناوين الثانويّة ذات الطابع العامّ.

كما أنّ مجلس خبراء القيادة يتولّى مسؤوليّة تشخيص من توجد فيه شروط القائد ومواصفاته؛ من العلم والورع والخبرة والقدرة

على قيادة الأُمّة، بدءاً واستمراراً، وهي ميزة أساسية للجمهورية الإسلامية، حيث إنّ استمرار ولاية القائد منوط ببقاء الشروط فيه، بشهادة مجلس الخبراء.

وهكذا نرى كيف حُفِظت مبادئ الثورة الإسلامية المظفّرة في الدولة الإسلامية، وهذا يشكّل انتصاراً كبيراً أهمّ من الانتصار الذي تحقّق يوم سقط نظام الشاه وأُزيل حكم الطاغوت.

الامتحانات الصعبة

تعرّضت الثورة الإسلامية بقيادة الإمام الراحل لامتحانات عدّة صعبة وقاسية، منها: الحرب المفروضة التي شُنّت على مدى ثمانية أعوام، والتي أُريدَ من خلالها إسقاط الثورة وإعادة إيران إلى حظيرة الطاعة للاستكبار الأمريكي، ومنها: سلسلة الاغتيالات التي طالمت أعمدة الدولة وبشكل لم يشهد له مثيل في السابق. وقد تجاوزت الثورة هذه العقبات القاتلة بصبر وحكمة منقطعة النظير، واستمرّ حضور الناس ومشاركتهم الكثيفة في الانتخابات حتّى اليوم، وهو أحد مظاهر استمرار نهج الثورة.

عندما تعرّضت إيران للحصارين الاقتصادي والسياسي، ترجم الإمام إصرار إيران على الاستقلال ثقافياً واقتصادياً بأكثر من موقف، فأقفل الجامعات ريثما تُعاد صياغة المناهج الجامعية التي تحقّق الاستقلال، وهو ما سعى بالثورة الثقافية، وأمر كلّ مقتدر أن يساهم في زراعة القمح، واستطاعت إيران بعام واحد أن

تحقق الاكتفاء الذاتي في مجال الاكتفاء الغذائي، لكي لا تبقى لقمة عيش الناس مرهونة للمستكبر والمحتكر.

هذه نماذج قليلة من التحديات والامتحانات التي تعرضت لها الثورة في مراحل صنع الاستقرار وبناء مؤسسات الدولة والمجتمع، وفي كلّ مرّة، ونتيجة استمرارية مبادئ الثورة، وبفضل حكمة الإمام وحضور الشعب الإيراني الحيّ والحرّ، كانت إيران تخرج أقوى وأعزّ وأكثر منعةً، وحصانةً.

وما تشهده إيران اليوم -بفضل الله- من تألق وتقدّم على المستويات كافة؛ العلميّة والتكنولوجيّة والصناعيّة ينقلها إلى مصافّ الدول العظمى، يأتي نتيجة طبيعيّة للمبادئ الحيّة للثورة التي لم تمت ولم يهت لونها بعد مضيّ عقود ثلاثة على انتصارها الأول، وستستمرّ بإذن الله.



قائمة المصادر والمراجع

- 1- القرآن الكريم.
- 2- الكنيسة، الكتاب المقدس (العهد القديم)، دار الكتاب المقدس، 1980م، لا.ط.
- 3- مغنية، الشيخ محمد جواد، التفسير الكاشف، دار العلم للملايين، بيروت، 1981م، ط3.
- 4- ياسين، الشيخ كاظم، تاريخ خاتم الأنبياء، دار المحجة البيضاء، لبنان - بيروت، 1434هـق/2013م، ط1.
- 5- أنور، أحمد فؤاد، الكنز الثمين في قواعد اللغة العبرية، لان، لام، لات، لا.ط.
- 6- الحموي، ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1995م، ط2.
- 7- الصدوق، الشيخ محمد بن علي، عيون أخبار الرضا عليه السلام، تصحيح وتعليق وتقديم: الشيخ حسين الأعلمي، الناشر: مؤسسة الأعلمي، بيروت - لبنان، 1404هـق/1984م، لا.ط.
- 8- الطبرسي، الشيخ ميرزا حسين النوري، نفس الرحمن في فضائل سلمان، جواد القيومي الجزهدي الأصفهاني، مؤسسة الآفاق، 1411هـق/1369هـش، ط1.

9- مرتضى العاملي، السيّد جعفر، سلمان الفارسيّ في مواجهة
التحدّي، المركز الإسلاميّ للدراسات، 1430هـ/ق/2009م،
ط3.

10- الطوسي، الشيخ محمّد بن الحسن، اختيار معرفة الرجال
(رجال الكشي)، تحقيق: جواد القيوميّ الأصفهانيّ، مؤسسة
النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين، قم، 1427هـ،
ط1.

11- الأمين، السيّد محسن، أصدق الأخبار، مكتبة بصيرتي، قم،
1331هـش، لا.ط.

12- المجلسي، العلامة محمد باقر بن محمد تقي، بحار الأنوار
الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، مؤسسة الوفاء، لبنان -
بيروت، 1403هـ - 1983م، ط2.

13- ابن نما الحليّ، ذوب النضار، جعفر بن محمّد، تحقيق:
فارس حسّون كريم، مؤسسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة
المدرّسين بقم المشرفة، إيران - قم، 1416هـ، ط1.

14- ابن إدريس الحليّ، الشيخ محمّد بن أحمد، مستطرفات
السرائر «باب النوادر» (موسوعة ابن إدريس الحليّ)، تحقيق
وتقديم السيّد محمّد مهديّ الموسويّ الخراساني، العتبة
العلويّة المقدّسة، 1429هـ/ق/2008م، ط1.

15- الأمين، السيد محسن، أعيان الشيعة، حققه وأخرجه: حسن
الأمين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لا.ت، لا.ط.

16- الأمين، حسن، مستدركات أعيان الشيعة، دار التعارف،
لبنان-بيروت، 1408 - 1987م، لا.ط.

- 17- الميلاني، السيد علي الحسيني، الشيخ نصير الدين الطوسي، وسقوط بغداد، مركز الأبحاث العقائدية، إيران - قم، 1421، ط1.
- 18- الحرّ العاملي، الشيخ محمد بن الحسن، أمل الآمل، مكتبة الأندلس، بغداد، لات، لا.ط.
- 19- القمي، الشيخ عباس، الكنى والألقاب، منشورات مكتبة الصدر، لام، لات، لا.ط.
- 20- الكتبي، محمد بن شاکر، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1974م، ط1.
- 21- المحقق الحلي، الحسن بن يوسف، كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، تحقيق: آية الله حسن زاده آملی، لان، لام، 1417هـ، ط7.
- 22- طوقان، قدری، تراث العرب العملي في الرياضيات والفلك، دار الشروق، بيروت، 1963م، ط3.
- 23- الأمين، حسن، الإسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، مطبعة باقري، 1417هـ، ط2.
- 24- السيد محمد العاملي، مدارك الأحكام، مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث - مشهد المقدسة، مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث - قم المشرفة، 1410هـ، ط1.
- 25- الحرّ العاملي، الشيخ محمد بن الحسن، أمل الآمل، مكتبة الأندلس، بغداد، لات، لا.ط.
- 26- آقا بزرك الطهراني، الشيخ آقا بزرك، الذريعة إلى تصانيف

الشيعة، دار الأضواء، لبنان - بيروت، 1403هـ - 1983م، ط3.
27- الشيخ البهائي العاملي، محمد بن الحسين، زبدة الأصول،
تحقيق: فارس حسون كريم، مرصاد، 1423هـق/1381هـش،
ط1.

28- الأمين، السيد محسن، خطط جبل عامل، تحقيق: حسن
الأمين، دار المحجة البيضاء، بيروت، لات، لا.ط.
29 ونشر: مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، إيران - قم،
1415هـق، ط1.

30- الحارثي العاملي، حسين بن عبد الصمد، وصول الأخبار إلى
أصول الأخبار، تحقيق: جعفر المجاهدي وعطاء الله الرسولي،
مجمع الذخائر الإسلامية، لام، لات، ط1.
31- الأميني، الشيخ عبد الحسين، الغدير في الكتاب والسنة
والأدب، دار الكتاب العربي، لبنان - بيروت، 1977م - 1397هـ،
ط4.

32- الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري)،
مراجعة وتصحيح وضبط نخبة من العلماء الأجلاء، مؤسسة
الأعلمي للمطبوعات، لبنان - بيروت، 1403هـق/1983م، ط4.

